أبو نصر السراج وكتابه « اللمع »

عبد الكريم زهور عدي

يقول نيكلسون ،[1] كما نقل عنه محققا كتاب اللمع[2] : « ومن العجيب أن يغفل مؤلفو التصوف القديم شأنه ، فلم يؤلفوا عنه أسفاراً تحوي لنا تاريخه وتراجمه وأحواله ، مع أنه كان فريد عصره ، راسخ القدم في علوم القوم ، وشيخاً لمذهبهم في الزهادة والتصوف » .

وعجب نيكلسون في محله . فكل ما يمكن جمعه مما كتبه القدماء في ترجمة أبي نصر قد لايتجاوز عشرة الأسطر إلا قليلاً . وإني مورد فيما يلي كل ما مكنتني أدواتي (مع الجهل بالفارسية) من الحصول عليه مرتباً ترتيباً تاريخياً (مع الاعتذار عما فيه من تكرار) :

(١)

فأبو عبد الرحمن السلمي (ـ ٤١٢) ، وأبو نصر واحد من شيوخه ، وهو يكثر من النقل عنه ، لم يدخله في طبقات الصوفية الذين ترجم لهم . ولكننا نقع في « تاريخ الإسلام » للذهبي على هذا النص : « قال السلمي : كان أبو نصر من أولاد الزهاد ، وكان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ، ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلم الشريعة ، وهو بقية مشايخهم اليوم ، ومات في رجب (ـ ٣٧٨ / ٩٨٨) ، ومات أبوه ساجداً » . وقد يكون المصدر الذي نقل عنه الذهبي هذه الترجمة كتاب « تاريخ الصوفية » للسلمي ، كما يشير الى ذلك محقق « طبقات الصوفية »[3] .

وأبو القاسم القشيري (ـ ٤٦٥) ، وكان تأثير اللمع في رسالته كبيراً ، لم يدرجه في الشيوخ الثلاثة والثمانين الذين ترجم لهم . ووجدت في الرسالة في سبعة مواضع فيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اسم عبد الله بن علي التميمي ، وبعد مقابلة ما في هذه المواضع من أقوال بما في اللمع[٤] وتطابق النصوص تأكد لدي أن عبد الله بن علي التميمي هو أبو نصر السراج ، ولم أجد في غير هذه المواضع من نسب أبا نصر إلى تميم .

ولم يختلف موقف أبي الحسن الهجويري (ـ ٤٦٥) عن موقف معاصره القشيري ، فهو أيضاً تأثر باللمع في كتابه كشف المحجوب ، ولم يترجم له فين ترجم لهم من الشيوخ . ولكنه يأتي على ذكره مرتين[٥] : إحداهما في باب « آدابهم في الصحبة » ، والأخرى في « كشف الحجاب السابع ، في الصوم » ، وجاء فيها : « ومعروف عن الشيخ أبي نصر السراج (الملقب) بطاووس الفقراء ، وصاحب كتاب اللمع ، أنه ورد بغداد في شهر رمضان ، فأعطوه خلوة في مسجد الشونيزية[٦] ، وأسلموا إليه إمامة الدراويش . فأمّهم حتى العيد ، وكان يختم القرآن خمس مرات في التراويح (!) . وكان الخادم كل ليلة يضع قرصاً في الخلوة ، فلما كان يوم العيد رحل رضي الله عنه ، ونظر الخادم فكانت الثلاثون قرصاً في مكانها » .

ثم نعثر في كتاب « أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد » تأليف محمد بن المنور بن . . . بن أبي سعيد بن أبي الخير (ترجح إسعاد عبد الهادي قنديل مترجمة الكتاب أن تاريخ تأليفه في سنة ٥٧٤) ، على خبرين يتصلان بأبي نصر : الأول هو السند الصوفي لأبي سعيد ومنه نعرف سند أبي نصر[٧] : « وكان الشيخ أبو الفضل حسن شيخ الشيخ أبي سعيد ومريداً للشيخ أبي نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء ، وله مصنفات في علم الطريقة والحقيقة ، وكان يقيم بطوس وقبره بها . وكان أبو نصر السراج مريداً لأبي محمد عبد الله بن محمد المرتعش الذي كان رجلاً عظيماً فريداً في عصره ، وقد توفي ببغداد . وكان المرتعش مريداً للجنيد . والجنيد مريداً لسري السقطي . وسري مريداً لمعروف الكرخي . وكان هذا مريداً لداود الطائي . الذي كان مريداً لحبيب العجمي . وكان العجمي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مريداً للحسن البصري . والبصري مريداً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وكان علي مريداً للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه » . والخبر الثاني هو أن الشيخ أبا سعيد حين ورد طوس[٨] « نزل في خانقاه الأستاذ أبي أحمد ، التي كانت مقراً لأبي نصر السراج . . » .

ثم نقع على الترجمة الثانية لأبي نصر في « تذكرة الأولياء » لفريد الدين العطار (ـ ٦٢٧) ، وقد ظنها نيكلسون الأولى ، كما نقل عنه محققا اللمع[٩] . وتنبئنا الدكتورة إسعاد قنديل أن ما ذكره العطار والجامي عن أبي نصر[١٠] « لا يتعدى تلك الإشارات الواردة في كشف المحجوب » .

أما أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (ـ ٧٤٨) فقد ترجم لأبي نصر ترجمتين : الأولى في كتابه « تاريخ الإسلام »[١١] ، قال : « عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى أبو نصر السراج الطوسي الصوفي ، مصنف كتاب اللمع . سمع جعفراً الخلدي وأبا بكر محمد بن داود الدقي وأحمد بن محمد السايح . روى عنه أبو سعيد محمد بن علي النقاش وعبد الرحمن بن محمد السرّاج وغيرهما . قال السلمي : كان أبو نصر من أولاد الزهاد ، وكان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ، ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلم الشريعة ، وهو بقية مشايخهم اليوم ، ومات في رجب ، ومات أبوه ساجداً » . والثانية في كتابه « العبر في خبر من غبر » ، قال :[١٢] «أبو نصر السراج ، عبد الله بن علي الطوسي الزاهد ، شيخ الصوفية ، وصاحب كتاب اللمع في التصوف ، روى عن جعفر الخلدي وأبي بكر بن داود الدقي . توفي في رجب » .

ولم يتجاوز صلاح الدين الصفدي (ـ ٧٦٤) في « الوافي بالوفيات »[١٣] ذكر اسم أبي نصر واسم كتابه وسنة وفاته .

وكذلك فعل أبو محمد عبد الله اليافعي (ـ ٧٦٨) في« مرآة الجنان »[١٤] ، لولا أن اللمع أصبحت فيه الملح (لابد أنها غلطة من الناسخ أو غلطة مطبعية) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وترجم نور الدين عبد الرحمن الجبامي (ـ ٨٩٨) لابي نصر في كتابه « نفحات الأنس » . وقد ذكرنا من قبل حكم الدكتورة قنديل على هذه الترجمة . ونقل محققا اللمع في مقدمتها[١٥] نص هذه الترجمة أو شيئاً منها ، وفيهما اسم الطوسي واسم كتابه وأسماء شيوخه الذين سمع منهم (وهم الذين ذكرهم الذهبي) .

ونقل صاحب « شذرات الذهب » عن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ـ ٩٠٢) (ربما من كتابه « التاريخ المحيط ») هذه الحكاية : « قال (أبو نصر) : خرجت مع أبي عبد الله الروذباري لنلقى أنبليا الراهب بصور ، فتقدمنا الى ديره ، وقلنا له : ما الذي حبسك ههنا ؟ قال : أسرتني حلاوة قول الناس لي : ياراهب » .

وحاجي خليفة (ـ ١٠٦٧) في « كشف الظنون »[١٦] لم يتجاوز ذكر الاسم واسم الكتاب وسنة الوفاة .

وفعل اسماعيل باشا البغدادي (ـ ١٣٣٩) الشيء نفسه في « هدية العارفين »[١٧]

وقد جمع أبو الفلاح بن العماد (ـ ١٠٨٩) في « شذرات الذهب »[١٨] ماكتبه الذهبي إلى مانقله عن السخاوي ، فكانت ترجمته لأبي نصر أوسع التراجم ، قال :

« أبو نصر السراج عبد الله بن علي (بن محمد بن يحيى التميمي) الطوسي الزاهد ، شيخ الصوفية ، وصاحب كتاب اللمع في التصوف . روى عن جعفر الخلدي وأبي بكر محمد بن داود الدقي (وأحمد بن محمد السايح . روى عنه أبو سعيد محمد بن علي النقاش وعبد الرحمن بن محمد السراج وغيرهما) . قال الذهبي (القول للسلمي ونقله عنه الذهبي) : (كان أبو نصر من أولاد الزهاد) ، وكان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ، ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلم الشريعة ، (وهو بقية مشايخهم اليوم . .ومات أبوه ساجداً) . وقال السخاوي : كان على طريقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السنة . قال : خرجت مع أبي عبد الله الروذباري لنلقى أنبليا الراهب بصور ، فتقدمنا الى ديره ، وقلنا له : ما الذي حبسك ههنا ؟ قال : أسرتني حلاوة قول الناس لي : ياراهب . وتوفي في رجب » .

هذا النص لابن العماد مع ما زدته عليه ربما كان كل مافي الكتب العربية القديمة عن أبي نصر . فإذا أضفنا إليه حكاية زيارته لبغداد في رمضان وصومه الشهر طياً التي رواها الهجويري ، وما ورد عن سنده الصوفي وعن الخانقاه في طوس التي كانت مقره في « أسرار التوحيد » ، والكرامة التي ذكرها له محققا اللمع دون أن يشيرا الى المصدر[١٩] : « . . أنه خلال محادثاته في التصوف أخذه الحال فقذف بنفسه في نار موقدة ، وهو يدعو الله ، فلم تلفح له وجهاً ، ولم تحرق له ثوباً » ـ فقد نكون جمعنا معظم ماكتبه القدماء من عرب وفرس في ترجمة أبي نصر ، إن لم يكن كله ، ويكون عجب نيكلسون ، بل شكواه قد وجدت مايسوغها .

ولكن نيكلسون يضيف ، كما نقل عنه محققا اللمع[٢٠] : « ولم كنت اتمنى لو سبق وجودي الى عصره الذهبي أو الذي يليه ، لأترسم خطاه وأتتبع آثاره وأخباره وأحواله ، فأميط اللثام عن مستور لو كشف لعبق عبيره وطيب شذا عرفه الأنام . على أني لو أتيح لي أن أكون أحد معاصريه المؤلفين ماأظنني واقفاً عند هذا الحد من النعت والتعريف ، ولعمري ما كنت إلا جاهداً نفسي لكشف النقاب عن حياة وأعمال هذا الإمام الجليل ، عساني أكون قد افتتحت مدرسة عليا لتخريج الفحول من الزهاد المتصوفة من أهل الرقعة الفقراء المخلصين » .

وما أظن الصوفية القدماء كانوا يوافقونه على آرائه وعلى نعت أبي نصر بالإمام . فالتعليل عندي لإغفالهم أبا نصر أن الصوفي الحق عندهم هو الشيخ الولي ، قطب الغوث أو أحد النقباء أو الأوتاد أو الأبدال . . ، وهو الذي يحق له أن يدخل في طبقات الصوفية أو طبقات الأولياء . أما أمثال السرّاج والكلاباذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والسلمي والقشيري والسهروردي (أبي حفص) . . فهم رواة كلمات ونقله أخبار ومؤرخون للتصوف والصوفية . ومن لقي منهم شيئاً من العناية فلصفات أخر وأسباب أخر غير التصوف . فالقشيري مثلاً لو لم يكن شافعياً وأشعرياً ولو لم يدخل في صراعات عقائدية كبيرة ويرزق أولاداً وأحفاداً أحيوا ذكره ، ما كان حظه ليكون أوفى من حظ أبي نصر ، ومع كل ذلك لم يجد له الشعراني مكاناً في طبقاته (الكبرى) .

ومحققا اللمع يجعلان من أبي نصر رأساً لمدرسة صوفية كبيرة تقف مع مدرسة الجنيد على مكان سواء ، قالا[٢١] : « مدرستان صوفيتان اعتصمتا بالكتاب والسنة . . أما المدرسة الأولى فهي مدرسة الإمام أبي القاسم الجنيد ببغداد ، وهي مدرسة اتخذت من المساجد منابر لدعوتها وجعلت من حلقاتها معاهد لتخريج الرجال . . والمدرسة الثانية هي مدرسة الإمام أبي نصر السرّاج الطوسي بنيسابور وهي مدرسة اتخذت من الكتب منابر لبيان دعوتها وشرح رسالتها . . »

وإن لي ملاحظات على هذا القول ، هي :

أولاً ـ إن أبا نصر طوسي وليس نيسابورياً . لقد رحل وأبعد ، ولكن مقره حين يقر كان في طوس في خانقاه فيها . إلا إذا كان يراد بنيسابور كل خراسان ، وهو وارد عند بعضهم[٢٢] .

ثانياً ـ إن السرّاج والسلمي والقشيري وغيرهم من مؤلفي الكتب ليسواهم شيوخ خراسان ، بل شيوخها هم أمثال حاتم الأصم (ـ ٢٣٧) وأبي تراب النخشبي (ـ ٢٤٥) وأبي يزيد البسطامي (ـ ٢٦١) ، وأمثال الملامتية حمدون القصار (ـ ٢٧١) وأبي حفص الحداد (ـ ٢٦٤) وأبي عثمان الحيري (ـ ٢٩٨) ، وأمثال أبي الحسن الخرقاني (ـ ٤٢٥) وأبي سعيد بن أبي الخير (ـ ٤٤٠) . ولم يكن هؤلاء من أصحاب الكلمة المكتوبة بل من أصحاب الكلمة المنطوقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثالثاً ـ يقول السلمي في الجنيد (ـ ٢٩٧)[٢٣] : « وهو من أئمة القوم وسادتهم ، مقبول على جميع الألسنة » ، ويجعله واحداً من سبعة خصهم بلقب « إمام » من نيف ومائتي شيخ ترجم لهم من شيوخ الصوفية الكبار . أما القشيري فالجنيد عنده[٢٤] : « سيد هذه الطائفة وإمامهم » بالقول المرسل . أريد أن أقول : إن الجنيد سلم له صوفية بغداد (بل صوفية بلاد الإسلام) بالإمامة ، ولكنه لم يكن صاحب مدرسة ، فلكل صوفي وجهته ، بل إن الهجويري[٢٥] جعل من أبي الحسين النوري (ـ ٢٩٥) ، مثلاً ، رأس فرقة دعاها النورية .

هذا وأقول : إن من صوفية بغداد من لم يعرف له كتاب ونقلت عنه الكلمات والأشعار مثل أبي بكر الشبلي (ـ ٣٣٤) ، ومن له الكتب الكثيرة أو القليلة مثل أبي بكر الواسطي (ـ ٣٢٠) وأبي سعيد بن الأعرابي (ـ ٣٤١) ، ومن كتب ونطق مثل الجنيد نفسه فله الأقوال السائرة وله الرسائل الكثيرة ، وهي وإن كانت قليلة في ألفاظها فهي كثيرة المعاني بعيدة الأغوار .

رابعاً ـ لم تكن الكتابات في ميدان التصوف وحوله قليلة قبل أعمال ما يدعوه محققا اللمع مدرسة أبي نصر[٢٦] . ويكفي التذكير بكتب التستري وبالقائمتين الطويلتين بمؤلفات المحاسبي والحكيم الترمذي . بل إن الكتابات التي تتصل اتصالاً مباشراً بالموضوعات التي تناولتها أعمال (مدرسة أبي نصر) وكانت مصادر أساسية لها لم تكن قليلة . وأذكر فيما يلي عدداً منها :

أبو عبد الله المحاسبي (ـ ٢٤٣) ـ رسالة في التصوف
ذو النون المصري (ـ ٢٤٦) ـ رسالة في ذكر مناقب الصالحين
يحيى بن معاذ الرازي (ـ ٢٥٨) ـ كتاب المريدين
أبو إسحق ابراهيم الخُتلي (ـ ٢٦٠) ـ كتاب الأولياء ـ كتاب الزهاد
أبو سعيد الخراز (ـ ٢٧٩) ـ كتاب معيار التصوف وماهيته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبو سعيد بن الأعرابي (ـ ٣٤١) ـ كتاب في معنى الزهد وأقوال الناس فيه وصفة الزاهدين ـ كتاب طبقات النساك

أبو محمد الخلدي الخواص (ـ ٣٤٨) ـ حكايات المشايخ ـ رسالة في التصوف

أبو عبد الله الروذباري (ـ ٣٦٩) ـ كتاب أدب الفقير

أبو الفرج الورثاني (ـ ٣٧٢) ـ طبقات الصوفية

أبو بكر بن شاذان الرازي (ـ ٣٧٦) ـ الحكايات الصوفية

أبو العباس النسوي (ـ ٣٩٦) ـ طبقات الصوفية .

شيخه

أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش (ـ ٣٢٨)[٢٧] ـ نيسابوري من محلة الحيرة . قال السلمي : صحب أبا حفص الحداد وأبا عثمان الحيري ، ولقي الجنيد وصحبه . وأقام ببغداد في مسجد الشونيزية ، حتى صار أحد مشايخ العراق وأئمتهم . قال أبو عبد الله الرازي : كان مشايخ العراق يقولون : عجائب بغداد (في التصوف) ثلاث : إشارات الشبلي ونكت المرتعش وحكايات جعفر الخلدي .

الشيوخ الذين سمع منهم .

أبو محمد الخواص جعفر بن محمد بن نصير الخلدي (ـ ٣٤٨)[٢٨] ـ بغدادي المولد والمنشأ . قال السلمي : صحب الجنيد وعرف بصحبته ، وصحب النوري ورويماً وسمنون والجريري وغيرهم . وكان المرجع إليه في علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم . قال السلمي : كان من أفتى المشايخ وأجلهم وأحسنهم قولاً .

أبو بكر محمد بن داود الدقي (هكذا في الطبقات وفي غيره ، وفيها وفاته بعد سنة ٣٥٠ ، وفي تاريخ بغداد : اسمه أبو بكر الزقي ووفاته ٣٦٠) ـ[٢٩] من دينور ، أقام بالشام ، توفي في دمشق ، عمر فوق مائة سنة . قال السلمي : صحب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبا عبد الله الجلاء وإليه كان ينتمي ، وصحب أبا بكر الزقاق الكبير وأبا بكر المصري . وكان من أقران أبي علي الروذباري . كان من أجل مشايخ وقته وأحسنهم حالاً .

أبو بكر أحمد بن محمد السايح -[٣٠] سمع القاسم بن محمد صاحب سهل بن عبد الله ، روى عنه أبو نصر السراج .

الشيوخ الذين سمعوا منه

أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السرّاج القرشي النيسابوري الفقيه (- ٤١٨)[٣١] - روى عن الأصم وجماعة ، وكان من جلة العلماء .

أبو سعيد محمد بن علي النقاش الأصبهاني الحنبلي (- ٤١٤)[٣٢] - صاحب التصانيف . قال الذهبي : روى عن ابن فارس وإبراهيم الجهمي وأبي بكر الشافعي وطبقتهم ، وكان ثقة صالحاً . وقال ابن ناصر الدين : كان حافظاً إماماً ذا إتقان ، رحل وطوف ، وصنف مع الصدق والأمانة والتحرير .

(٢)

كتاب اللمع

اسم الكتاب

قال أبو نصر في مقدمة اللمع[٣٣] : « أما بعد ، فإني استخرت الله تعالى وجمعت أبواباً في معنى ما ذهب إليه أهل التصوف . . وذكرت من كل فصل طَرفاً ومن كل أصل طُرفاً ونتفاً ومن كل باب لمعاً ، على حسب ماسنح به الحال ومكن منه الوقت وجاد به الحق جل ذكره . . »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجاء في « لسان العرب » في مادة « لمع » : « لمع الشيء يلمع لمعاً ولمعاناً وتلماعاً وتلمّع ، كله برق وأضاء ، والتمع مثله . . ولمع البرق يلمع لمعاً ولمعاناً إذا أضاء . . ولمع بثوبه وسيفه لمعاً وألمع : أشار . . ولمع الرجل بيديه : أشار بهما . . واللمعة بالضم : قطعة من النبت إذا أخذت في اليبس . قال ابن السكيت : يقال : لمعة أحشّتْ أي قد أمكنت أن تُحَشّ وذلك إذا يبست . . واللمعة : الطائفة . ويقال : ذهبت نفسه لماعاً أي قطعة قطعة . . وقيل : الألمعي الذي إذا لمع أول الأمر عرف آخره ، يكتفي بظنّه دون يقينه ، وهو مأخوذ من اللمع وهو الإشارة الخفية والنظر الخفي » .

فإذا نظرنا الى نص أبي نصر وإلى ما قارن لفظة « اللمع » فيه من ألفاظ : « الطَرف والطُرف والنتف » ، وجدنا أنها بالمعنى اللغوي يصح أن تكون عنواناً لكتاب ، ويكون معناها : طائفة من القطع المختارة أو القطوف .

ولكن مادة « لمع » ، لغوياً ، فيها معنى الإشارة الخفية ، و « اللوامع » مصطلح صوفي ، فهل أشار أبو نصر بعنوان كتابه إلى معنى صوفي ؟

يقول أبو نصر[٣٤] : « اللوامع معناه قريب من اللوائح . وهو مأخوذ من لوامع البرق إذا لمعت في السحاب طمع الصادي والعطشان في المطر . . واللوائح ما يلوح للأسرار الظاهرة لزيادة السمو والانتقال من حال إلى حال أعلى . . »

وقد يكون القشيري أوضح من أبي نصر في شرح هذا المصطلح ، قال[٣٥] : « اللوائح والطوالع واللوامع . . هذه الألفاظ متقاربة المعنى . . وهي من صفات أصحاب البدايات . . فكلما أظلم عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنح لهم فيها لوائح الكشف وتلألأ لوامع القرب . . فتكون أولاً لوائح ثم لوامع ثم طوالع .فاللوائح كالبرق ما ظهرت حتى استترت . . واللوامع أظهر من اللوائح وليس زوالها بتلك السرعة . . والطوالع أبقى وقتاً وأقوى سلطاناً . . ولكنها موقوفة على خطر الأفول » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والملاحظ أن المصطلح الصوفي يأتي غالباً على صيغة الجمع « لوامع » ، وقد يأتي على صيغة « لمعات » ، ولم أقع عليه في صيغة « لمع » . على حين أن الصيغ « لمع » و « لوامع » و « لمعة » و« لمعات » نجدها أسماء لكتب في علوم كثيرة : حديث ، تفسير ، فقه ، فرائض ، أصول ، نحو ، لغة ، حساب ، فلك الخ . .وقد كتب ابن جني كتابه « اللمع في النحو » في زمن كتابة أبي نصر كتابه « اللمع » أو زمن قريب منه

فالأرجح عندي أن أبا نصر قصد باسم كتابه الى المعنى اللغوي المتداول ، وقد يكون ترك له أن يوحي ، لمن له قلب ، بعض الإيحاءات الصوفية ، لاسيما وهو يقول (بعد النص المذكور سابقاً) : « فينظر الناظر فيه عند تيقظ وتنبه وحضور قلب . متقرباً الى الله تعالى ذكره ، وشاكراً له على ما منحه من تسديده وتوفيقه وهدايته الى موالاة هذه العصابة ، ومناوأة من بسط لسانه فيها . . »

تاريخ تأليفه

لم يذكر أبو نصر تاريخ تصنيفه كتاب اللمع كما فعل القشيري في رسالته ، ولم يقع لنا نص يحدد هذا التاريخ ، فهل في « اللمع » ذاته ما يدل عليه ولو دلالة تقريبية ؟ ليس في الكتاب ماقد يفيد بعض الفائدة إلا أسماء الشيوخ الذين ينص على أنه سمع منهم ، وإمكان معرفة سنوات وفياتهم ، وما تبع أسماءهم من عبارة « رحمه الله » أو عدمه . ولكن المشكلة أن المؤلف لا يتبع طريقة ثابتة في ذكر « الترحم » ، وأن النساخ كثيراً ما يضيفونه من عندهم دون أن يكون في الأصل . فلننظر الى ما تنتهي إليه هذه المحاولة :

أحصيت زهاء ثلاثين شيخاً ذكر أبو نصر أنه سمع منهم أو أنشدوه أو أملوا عليه أو رآهم[٣٦] . وكان أكثر نقله عن : أبي محمد جعفر الخلدي (ـ ٣٤٨) وأبي بكر السدقي (ـ ٣٦٠) وأبي الحسن أحمد بن محمد بن سالم (بعد ٣٥٠) وأبي عبد الله بن عطاء الروذباري (ـ ٣٦٩) وأبي الحسن علي بن ابراهيم الحصري (ـ ٣٧١) وأبي بكر أحمد بن علي الكرجي الوجيهي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهؤلاء جميعاً أتبع ذكر أسمائهم بالترحم مرات وأغفله مرات ، وهذا يعني (إذا لم يكن ذكر الترحم من عمل النساخ ، وهو ما أرجحه) ، أن الكتاب أنجز بعد سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، أي في السنين الأواخر من حياة أبي نصر . ويعني أيضاً أن أبا نصر جمع مادته في مراحل غير قصيرة : من منتصف القرن الرابع الى أوائل ربعه الأخير . وقد يقوي هذا الاستنتاج ، مثلاً ، أن أبا نصر لم يذكر في أبواب الكتاب الأولى علم الكلام بين علوم الشريعة التي عليه أن يميز بين موضوعها وموضوع علم التصوف ، على حين أنه في الأبواب الأخيرة يدرجه في علوم الشريعة ويحاول أن يجد له تعريفاً .

سبب التأليف وهدفه .

قال أبو نصر[٣٧] : « سألني سائل عن البيان عن علم التصوف ومذهب الصوفية . . » ويبدو أن أمثال هذا السائل في ذلك الزمان كانوا كثيراً . فقد مضى على وفيات الزهاد الذين مازجوا التصوف بعض المازجة أمثال إبراهيم بن أدهم العجلي (ـ ١٦٢) والفضيل بن عياض التيمي (ـ ١٨٧) وداود الطائي (ـ ١٦٥) أكثر من قرنين . وانتشر التصوف انتشاراً واسعاً . واختلف الناس فيه . قال أبو نصر : « فمنهم من يغلو في تفضيله ورفعه فوق مرتبته ، ومنهم من يخرجه عن حد المعقول والتحصيل ، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل ، ومنهم من ينسب ذلك الى التقوى والتقشف ولبس الصوف . . ومنهم من يسرف في الطعن وقبح المقال حتى ينسبهم الى الزندقة والضلالة » . واجتمع خلال هذين القرنين تراث صوفي ضخم من الأخبار والأقوال والكتابات التي تنتظر من يرتبها ويصنفها .. قال الخلدي[٣٨] : « عندي مائة ونيف وثلاثون ديواناً من دواوين الصوفية » .

وتسلل الى التصوف كثير من الأدعياء . قال أبو نصر[٣٩] : « وقد كثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الخائضون في علوم هذه الطائفة ، وكثر أيضاً المتشبهون بأهل التصوف ، والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها ، وكل واحد يضيف الى نفسه كتاباً قد زخرفه وكلاماً ألفه ، وليس بمستحسن منهم ذلك » . وكثير من المتحللين وأهل البدع والزيغ والضلال تلبسوا بالتصوف ولبسوا به . فاقتضى كل ذلك نفى الدخيل على التصوف عنه ، وطرد الغرباء الواغلين في أهل التصوف من بين صفوفهم .

فلم يأت الثلث الأخير من القرن الرابع حتى توفرت كل الدواعي ، الإيجابية والسلبية ، لنشوء دراسات تتناول من جهةٍ علمَ التصوف : موضوعه وطريقته ومسائله ، ومن جهةٍ أخرى تاريخ التصوف والصوفية . ولبى أبو نصر الدعاء : بشرح « ماصح عندي من أصول مذهبهم المؤيد المنوط بمتابعة كتاب الله عز وجل ، والاقتداء برسول الله ﷺ ، والتخلق بأخلاق الصحابة والتابعين ، والتأدب بآداب عباد الله الصالحين ، وأقيد ذلك بالكتاب والأثر (و) بالحجة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ويعرف الجد من الهزل والصحيح من السقيم ، ويرتب كل نوع منه في موضعه ، إذ كان ذلك علماً من علوم الدين » .

ولم يكن أبو نصر الوحيد . ففي الزمان الذي كان يصنف فيه السراج **الطوسي** « اللمع » ، أو في زمان قريب منه ، كان أبو بكر الكلاباذي **البخارى** (ـ ٣٨٠) يصنف « التعرف » ، وأبو طالب المكي **البغدادي** (ـ ٣٨٦) « قوت القلوب » . ثم تبعهم أبو عبد الرحمن السلمي **النيسابوري** (ـ ٤١٢) في « الطبقات » وكتبه الأخرى ، ثم أبو نعيم **الأصبهاني** (ـ ٤٣٠) في « الحلية » ، ثم أبو القاسم القشيري **النيسابوري** (ـ ٤٦٥) في « الرسالة » ، وأبو الحسن الهجويري **الغزنوى** (ـ ٤٦٥) في « كشف المحجوب » (بالفارسية) ، ثم صنف أبو إسماعيل عبد الله الأنصاري **الهروي** (ـ ٤٨١) « منازل السائرين » ونقل الى الفارسية الهروية « طبقات » السلمي . ولم يبلغ القرن الخامس نهايته حتى كان أبو حامد الغزالي **الطوسي** (ـ ٥٠٥) قد وضع كتابه الجامع « الإحياء » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مصادره

أكثر أبو نصر من الرحلة في طلب السماع وصحبة المشايخ وأبعد فيها . فهو يذكر في كتابه أسماء اثنتي عشرة مدينة ، هي : بغداد والبصرة وتُستَر وتبريز ورحبة مالك بن طوق ودمشق وأنطاكية وطرابلس وصور والرملة ومصر ودمياط . وهي المدن التي دعت المناسبة الى ذكرها ، ولكنها تكشف عن المدى الجغرافي الواسع الذي تجوّل فيه ، والذي يشمل من بلاد الإسلام من خراسان الى مصر .

وسمع في رحلاته من الكثير من المشايخ . وقد سبق القول أنه في كتابه ذكر أسماء ثلاثين شيخاً سمع منهم . وهم أيضاً ما دعت المناسبة الى ذكرهم . ولولا أنه اتبع الطريقة التي قال فيها : « حذفت الأسانيد عن كثير مما ذكرت في هذا الكتاب ، واقتصرت على متون الأخبار والحكايات والآثار للاختصار » ، لوقفنا على أسماء أخرى كثيرة لشيوخ صحبهم وروى عنهم .

أما الأخبار والحكايات والآثار التي روى متونها فقد كانت لأكثر من مائة وخمسين شيخاً صوفياً ، ذلك عدا الآيات والأحاديث وأخبار الصحابة والتابعين والزهاد الصالحين وأقوالهم .

وكان أكثر نقله عن العراقيين ، ولا سيما الجنيد والتستري والخراز والنوري والمكي والشبلي والجريري والأدمي والواسطي وابن الأعرابي وابن سالم ، ونقل غير قليل عن أبي يزيد ويوسف بن الحسين وأبي علي الروذباري . . هذا ، مع إغفاله إغفالاً تاماً ذكر الملامتية ، وهي ما امتازت به في التصوف خراسان : فلم يأت البتة على ذكر حمدون القصار ، رأس الملامتية ، ولا ابن منازل ولا محمد بن عبد الوهاب الثقفي ، ونقل أقوالاً قليلة لأبي حفص الحداد وأبي عثمان الحيري واسماعيل بن نجيد . وهذا يؤكد مرة أخرى أن الأولى أن يعدّ بقية مشايخ (البغداديين) لا رأس (مدرسة نيسابور) ، وإن كان طوسياً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والأرجح أن أبا نصر كان يرجع في أكثر ما كتب إلى نصوص مكتوبة : منها ما سجله من سماعاته ، ومنها كتب القوم ورسائلهم . فقد نص في أكثر من عشرة مواضع من كتابه على أنه يرجع فيما يورد الى كتاب : « . . ما أشار إليه المكي في كتاب المشاهدة . . ـ ووجدت في كتاب أظنه بخط جعفر الخلدي . . ـ أما أبو سعيد أحمد ابن عيسى الخراز (فـ) أنكر عليه جماعة من العلماء ونسبوه الى الكفر بألفاظ وجدوها في كتاب صنفه وهو كتاب السر ، فلم يفهموا معناه ـ رأيت في كلام الواسطي . . ـ قال أبو سعيد في كتابه الوجد . . ـ أخبرني جعفر بن محمد الخلدي فيما قرأت عليه . . » ووردت في اللمع أسماء بعض الكتب منها ما ذكرت ، ومنها : كتاب أدب الصلاة لأبي سعيد الخراز ، وكتاب المناجاة وكتاب تفسير أبي يزيد للجنيد ، وكتاب معرفة المعرفة للخواص . كما وردت إشارات الى كتب لم تذكر أسماؤها .

وهذا كله يؤيد ترجيحي أن أبا نصر كتب معظم كتابه وأنجزه في أواخر حياته ، بعد أن ختم رحلاته واستكمل عدته واستقر في طوس .

طريقة أبي نصر في البحث وأسلوبه في العرض

انتقد أبو نصر في مقدمة كتابه أهل زمانه في ناحيتين :

الأولى : لاحظ كثرة الخائضين في علوم القوم دون استكمال العدة . ولم يكن كذلك **الأوائل والمشايخ**[٤٠] « الذين تكلموا بعد قطع العلائق وإماتة النفوس **بالمجاهدات . . وقاموا** بشرط العلم ، ثم عملوا به ، ثم تحققوا في العمل فجمعوا بين **العلم والحقيقة والعمل** » .

فوضع القاعدة الأولى والأساسية لمن يريد أن يتكلم في التصوف ، وهي أن تتوفر فيه شروط ثلاثة : العلم وهو العلم الشرعي ، والعمل بالعلم ، والتحقق وهو درك المعاني الباطنة في العلم والعمل ، وهو عين التجربة الصوفية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الثانية ، وما دام أبو نصر قد صنف في التصوف فهو يرى في نفسه أنها تحققت فيها هذه الشروط . ومع ذلك كان يتحرج عن الكلام إذا وجد للأوائل كلاماً في معناه ، ويتحرى الدقة في نقل أقوالهم ، وإذا نكت في قلبه أى شك في نسبة القول أو في نصه تحفظ بقوله : « أظن » أو « أو كما قال » أو « والله أعلم » . قال : [٤١]« . . وإنما ذكرت في كتابي هذا أجوبة هؤلاء المتقدمين وألفاظهم لأن لي فيها غنية عن تكلفي كتكلف المتأخرين في زماننا هذا إذا تكلموا في هذه المعاني أو أجابوا عنها بجواب أو أضافوا ذلك إلى أنفسهم وهم متعرون عن حقائقهم وأحوالهم .

« وكل من أخذ من كلام المتقدمين . . معنى من معانيهم التي هي أحوالهم ووجدهم ومستنبطاتهم ، وحلاها من عنده بحلية غير ذلك ، أو كساها عبارة أخرى ، أو أضافها الى نفسه حتى يشار إليه بذلك أو يطلب بذلك جاهاً أو . . فإنه عز وجل خصمه في ذلك وهو حسيبه ، لأنه قد ترك الأمانة وعمل بالخيانة ، وهذه أعظم وأكبر من الخيانة التي في أسباب الدنيا . . » .

وهكذا وضع القاعدة الثانية في كل بحث لا في البحث الصوفي وحده ، وهي : الأمانة وإعطاء كل ذي حق حقه .

ونظرية أبي نصر في التصوف ، وهي نظرية كل صوفية الإسلام ، أنه يصدر عن القرآن والسنة وإليها مرجعه . ولذلك سعى بعناية في كل مسألة تناولها إلى البدء ، حيث أمكنه ، بآية أو أكثر وحديث أو أكثر تتصل اتصالاً قريباً أو بعيداً بالمسألة ، يجعلها المقدمة التي يستخرج منها أو يستنتج الأحكام والآراء والتقسيمات . وقد يستعين في أثناء العرض والمعالجة بشواهد من القرآن والسنة . ثم يتبع أحد طريقين في الإفادة من أقوال الصالحين والصوفية وأخبارهم : فإما أن يعرض رأيه وتقسيماته وتكون الأقوال شواهد مؤيدة ، أو يعتمد على هذه الأقوال ليستخلص منها الآراء والأحكام والتقسيمات . وكثيراً ما يتبع الأقوال بشروح من عنده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا في كل مسألة ، أما من حيث الصورة العامة الجامعة لكتاب « اللمع » ، فقد قسّمه أبو نصر الى عدد من الكتب ، كل كتاب منها يحتوي عدداً من الأبواب . ولكنه ابتدأ بأبواب كثيرة لم ينظمها في كتاب ، تكلم فيها على علوم التصوف والحديث والفقه ، وعلى اسم الصوفية ، ثم على التوحيد والمعرفة . أما الكتب فهي كتب : الأحوال والمقامات ـ أهل الصفوة في الفهم والاتباع لكتاب الله ـ الأسوة والاقتداء برسول الله ـ المستنبطات ـ الصحابة ـ آداب المتصوفة ـ المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل ـ السماع ـ الوجد ـ إثبات الآيات والكرامات ـ البيان عن المشكلات ـ تفسير الشطحيات والكلمات التي ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح مستقيم .

وأكاد أتبين المنطق العام الذي ينظم كتب « اللمع » وأبوابه ، وأتبين الأقسام الرئيسة فيه وهي :

١ ـ مقدمة منطقية عامة وتشمل الأبواب الأولى .

٢ ـ موضوع علم التصوف وهو كتاب الأحوال والمقامات .

٣ ـ أصول التصوف وطريقة الاستنباط منها . ويشمل كتب : الفهم والاتباع لكتاب الله ـ الأسوة والاقتداء برسول الله ـ المستنبطات ـ الصحابة .

٤ ـ آداب الصوفية ، وهو كتاب آداب المتصوفة ، وقد يدخل فيه ، بمعنى ما ، كتاب المكاتبات . .

٥ ـ مسائل ومشكلات في التصوف اختلفت فيها الآراء ، ويشمل كتب : المسائل واختلاف أقاويلهم في الأجوبة ـ السماع ـ الوجد ـ إثبات الآيات والكرامات

٦ ـ لغة التصوف ، وهو كتاب البيان عن المشكلات

٧ ـ رد الغريب من كلمات الصوفية الى معناه الصحيح ويشمل الأبواب السبعة عشر الأولى من كتاب تفسير الشطحيات . .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٨ ـ نفى ماليس من التصوف عنه من الغلط والضلالة ، ويشمل الأبواب العشرين الباقية من كتاب تفسير الشطحيات . .

وسأتبع في عرض كتاب اللمع هذا التصنيف لمادته .

قيمة كتاب اللمع وتأثيره

يُذكر أبو نصر في الكتب التي ترجمت له بصفته صاحب كتاب اللمع في التصوف . ولكن حظ الكتاب لم يكن خيراً من حظ صاحبه . فهو على ما يظهر لم يحظ بالانتشار . إذ النسخ المخطوطة الباقية منه والتي عثر عليها أربع نسخ[٤٢] (اثنتان منها مخرومتان ، والثالثة على الأكثر) . وليس له مختصرات ولا شروح ولا حواشٍ ولا ترجمات ، كما للتعرف وقوت القلوب والطبقات والرسالة والإحياء . وكي آتي بأمثلة على مدى إغفال اللمع ، أكتفي بالغزالي وابن خلدون ، فالأول حين تحدث في « المنقذ »[٤٣] على بداية تحصيله لعلم القوم ذكر قوت القلوب وكتب المحاسبي وشذرات الجنيد والشبلي وأبي يزيد ولم ينبس بكلمة على اللمع . وأما ابن خلدون فلم يأت ، في الفصل الذي خصصه للتصوف في مقدمته[٤٤] ، على ذكره ، وقد ذكر عدداً من المتصوفة ولاسيما القشيري ورسالته والسهروردي وعوارفه والغزالي وإحياؤه . ولم ينل أبو نصر وكتابه حقهما من التقدير إلا بعد أكثر من ألف سنة ، حين حقق نيكلسون اللمع ونشره وترجمه الى الانكليزية (١٩١٤) ، ثم حققه أربري (١٩٤٧) ، ثم عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور (١٩٦٠) . لم أطلع على نشرة أربري . أما نشرة نيكلسون فقد حررها على مخطوطتين : مخطوطة أ . ج . أليس ويرجع تاريخ نسخها الى ١٠ ربيع الثاني سنة ٦٨٢ وعدد أوراقها ١٩٧ ورقة ، ومخطوطة المتحف البريطاني ويرجع تاريخ نسخها الى جمادى الثانية سنة ٥٤٨ وعدد أوراقها ٣٤٢ . وقد وصف المخطوطتين وقارن بينهما . وقدم للكتاب بمقدمة بالانكليزية ترجم فيها لأبي نصر وعرف باللمع ، ثم عرض محتواه عرضاً مفصلاً استغرق ١٢١ صفحة . وأحاطه بجهاز نقدي موسع من حواشٍ وفهارس للتعابير والمصطلحات والأشخاص والأماكن والقبائل والكتب وغير ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما نشرة محمود وسرور فقد قالا في المقدمة عنها : « نقدم كتاب اللمع . . محرراً محققاً ، بعد أن استكملنا النقص الكبير الذي كان في طبعته الأوربية التي قام بها المستشرق نيكلسون . كما قمنا بضبط أعلامه وتخريج أحاديثه والتقديم له والتعقيب عليه (؟!) » . وذكرا في الحاشية : « كان في طبعة نيكلسون قسم مفقود ، ابتداء من (باب في ذكر أبي الحسن النوري رحمه الله ، ثم أبواب ذكر أبي حمزة الصوفي ، ذكر جماعات المشايخ الذين رموهم بالكفر ، ذكر أبي بكر على بن الحسن ، ذكر محمد بن موسى الفرغاني ، بيان ما قال الواسطي) . وقد أثبتنا هذا القسم المفقود » . ولكنهما وجدا من نافلة القول ذكر المخطوطات والمطبوعات التي اعتمدا عليها ، وأنه يكفيهما أن يتبعا النص بفهرس للأعلام ، وأن يعهدا الى « المحدث السيد محمد الحافظ التيجاني . . بتخريج أحاديث كتاب اللمع » .

أغفل القدماء أبا نصر وكتابه ، ولكنهما لم يكونا مهملين : فقد تركا تأثيراً كبيراً في الذين كتبوا من بعدهما في علم التصوف وتاريخه . ففي الطبقات ، مثلاً ، نقل عنه السلمي[٤٥] في أربعة وعشرين ومائة موضع . وفي الرسالة نقل عنه القشيري في ستة وسبعين موضعاً[٤٦] . أما فيما يخص الهجويري فقد كفتني الدكتورة قنديل مؤونة البحث حين بينت في المقدمة[٤٧] تأثير اللمع في كشف المحجوب وقارنت بين بعض النصوص في الكتابين ، وأشارت في حواشيها على الترجمة[٤٨] ، في ثمانية وثلاثين موضعاً ، الى مابين النصوص في الكتابين من تشابه أو اتفاق أو تطابق .

والملاحظ أن أكثر النقل كان عن أبي نصر الراوية لأقوال شيوخ الصوفية وأخبارهم . ولكن الأهم من الأخبار المروية هو الفكرة العامة التي أقام عليها أبو نصر كتاب اللمع ، فكرة الكتابة في علم هو « علم التصوف » ، والخطة التي نظمه عليها ، والتقسيمات التي رتبها ، والمسائل التي درسها ، والطريق التي شقها فسلكها المصنفون من بعده في التصوف . ففي هذا العمل التنظيمي التركيبي للمجموعة الضخمة من الكتابات والأقوال والأخبار الصوفية ، تظهر الجدة في اللمع والقدرة الإبداعية عند أبي نصر وتأثيرهما الكبير في التصوف والصوفية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٣)

ولما كان أبو نصر و « اللمع » قد بدأ حقها في التقدير يظهر في هذا العصر ، ولما كان اللمع لم يجد من يلخصه قديماً ، فلأحاول أن أ لخصه تلخيصاً يقف عند الأفكار الرئيسة ويكتفي بالمثال الدالّ والإشارة الموحية :

١ ـ علم التصوف

سعى أبو نصر في الأبواب الأربعة عشر[٤٩] التي ابتدأ بها كتابه الى تبيين استقلال علم التصوف عن علمي الحديث والفقه ، على الرغم من اشتراكهما في الموضوع ، وهو الدين . إذ العلم درجات ، تختص كل درجة منها بمعان تميزها من الدرجات الأخرى . « وأصل ذلك حديث الإيمان[٥٠] ، حيث سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن أصول ثلاثة : عن الإسلام والإيمان والإحسان ، الظاهر والباطن والحقيقة ، فالإسلام ظاهر والإيمان ظاهر وباطن والإحسان حقيقة الظاهر والباطن » . والعلماء أصناف ثلاثة : أصحاب الحديث والفقهاء والصوفية ، « وكل صنف من هؤلاء مترسم بنوع من العلم والعمل والحقيقة والحال » :

فأما أصحاب الحديث ، فقد طلبوه : « جوّلوا البلاد ، وطلبوا رواة الحديث فلزموهم ، حتى نقلوا عنهم أخبار رسول الله ﷺ ،وجمعوا ما روي عن الصحابة والتابعين . . وصححوا رواياتهم بسماع الأذن وحفظ القلب والضبط من أصول الثقات عن الثقات والعدول عن العدول ، فأتقنوا ذلك . . »

وأما الفقهاء فإنهم فضلوا على أصحاب الحديث . . بالاتفاق معهم في معاني علومهم ، « ثم خصوا بالفهم والاستنباط في فقه الحديث ، والتعمق بدقيق النظر في ترتيب الأحكام وحدود الدين وأصول الشرع ، فبينوا ذلك ، وميزوا الناسخ من المنسوخ ، والأصول من الفروع ، والخصوص من العموم ، بالكتاب والسنة والإجماع والقياس » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما الصوفية فقد اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم وقبلوا علومهم . ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية والفهم . . فإنهم يرجعون إليهم إذا أشكل عليهم حكم من أحكام الشرع أو حد من حدود الدين ، فإذا اتفقوا فهم معهم فيما اتفقوا عليه ، وإذا اختلفوا فالصوفية يأخذون بالأحسن والأولى والأشد ، لأنهم يتباعدون عن الرخص والسعات وركوب الشبهات .

ثم إن لهم تخصيصاً بمعان ليست للفقهاء وأصحاب الحديث . منها :

قطع كل علاقة تحول بينهم وبين مقصودهم ، وما مقصودهم إلا الله ، بالزهد بالدنيا ومخالفة النفس ومجانبة حظوظها ، بالصبر على المجاهدة ومخالفة الهوى .

ومراعاة الأسرار ومساكنة الأفكار ، حتى يعبدوا الله بقلوب حاضرة وهموم جامعة .

ثم إن لهم أحوالاً يقلبهم فيها الحق ، ومقامات يترقون فيها ، ليس لغيرهم من أولي العلم نصيب فيها غير الإقرار والإيمان بأنها حق .

ولهم معرفة الحرص والأمل ودقائقها ، والنفس وأماراتها وخواطرها ، ودقائق الرياء والشهوة الخفية والشرك الخفي ، وكيف الخلاص من كل ذلك .

وإن لهم أيضاً « مستنبطات في علوم مشكلة على فهوم الفقهاء والعلماء ، لأن ذلك لطائف مودعة في إشارات لهم تخفى في العبارة من دقتها ولطافتها : وذلك في معنى العوارض والعوائق والعلائق والحجب ، وخبايا السر ، ومقامات الإخلاص ، وأحوال المعارف ، وحقائق العبودية ، ونحو الكون بالأزل ، وتلاشي المحدث إذا قورن بالقديم . . وعبور الأحوال والمقامات . . وفناء رؤية القصد ببقاء رؤية المقصود . . والهجوم على سلوك سبل منطمسة وعبور مفاوز مهلكة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد أنكر جماعة من العلماء أن يكون في علم الشريعة تخصيص . ولا خلاف في أن الله أمر رسوله بإبلاغ ما أنزل إليه ، ولكن هذا لا يعني أن الرسول لم يكن يعلم علوماً لم يؤمر بإبلاغها . وخصّ بها بعض أصحابه . فقد خصّ حذيفة بن اليمان بعلم أسماء المنافقين أسرّه إليه . ورُوي عن علي قوله : « علّمني رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين باباً من العلم لم يعلّم ذلك أحداً غيري » .

وأنكرت طائفة من أهل الظاهر العلم الباطن ، وقالوا : لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التي جاء بها الكتاب والسنة . إن علم الشريعة علم واحد ، وهو العلم الذي يدلّ ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة . أما الأعمال الظاهرة فهي أعمال الجوارح الظاهرة ، وهي العبادات والأحكام ، وأما الأعمال الباطنة فهي أعمال القلوب ، وهي المقامات والأحوال مثل الإيمان واليقين والمعرفة والمحبة الخ . . ويؤكد ذلك قول الله تعالى :[٥١] « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ، فالنعمة الظاهرة ما أنعمه الله تعالى على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات ، والنعمة الباطنة ما أنعم الله على القلب من هذه الحالات . وقال سبحانه :[٥٢] « ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ، والعلم المستنبط هو العلم الباطن .

فإذا سأل سائل : لمَ سُميّ الصوفيةُ باسمهم فنسبوا الى ظاهر اللبسة ، ولم ينسبوا الى علم كالفقهاء ، أو إلى حال كالزهاد ؟ فالجواب : « إن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة . . » ، فلما لم يكن ذلك نُسبوا الى ظاهر اللبسة ، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ، كما نسب أصحاب عيسى عليه السلام الى ظاهر اللبسة ، فقال عز وجل :[٥٣] « وإذ قال الحواريون . . » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التوحيد والمعرفة

ويتبع أبو نصر الأبواب الأربعة عشر بأربعة أبواب أخرى[٥٤] خصصها للتوحيد والمعرفة ، وكل منها مسألة المسائل في علم التصوف وفي علوم أخرى . وقد يكون قدّمها لأنها في التصوف البدء والنهاية ، أو ليكشف بها ، وهما جوهر الدين ، كيف يختص الصوفية فيها بمعان لا يشاركهم فيها غيرهم .

واعتمد في معالجة هاتين المسألتين على أقوال كبار المشايخ ، أمثال ذي النون والجنيد والنوري ورويم ويوسف بن الحسين وأحمد بن عطاء وغيرهم . وقد يعلق على أقوالهم أو يشرحها إذا كانت من الأقوال الغامضة أو المتشابهة .

ميز في التوحيد درجتين مرة وثلاث درجات مرة أخرى ، وذكر أيضاً التوحيد بلسان الواجدين . نقل عن الجنيد قوله ، وقد سئل عن التوحيد فقال : « إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته ، بأنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، بنفى الأضداد والأنداد والأشباه وما عبد من دونه ، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل ، إلهاً واحداً صمداً فرداً ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . ونقل عن الجنيد أيضاً قوله في التوحيد أنه « معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ويكون الله تعالى كما لم يزل » . ثم علق على القولين أن الأول توحيد العامة والثاني توحيد الخاصة .

ونقل عن يوسف بن الحسين ثلاثة أقوال : الأول في توحيد العامة ، والثاني في توحيد أهل الحقائق على الظاهر ، والثالث في توحيد الخاصة .

ثم أضاف : « ولهم في حقيقة التوحيد لسان آخر وهو لسان الواجدين ، وإشارتهم في ذلك تبعد عن الفهم . ونحن نذكر من ذلك طرفاً كما (قد تكون : مما) يمكن شرحه . وهذا العلم أكثره إشارة لاتخفى على من يكون من أهله ، فإذا صار الى الشرح والعبارة يخفى ويذهب رونقه . وإنما دعاني الى شرحه لأني (أني) وضعته في الكتاب ، والكتاب ربما ينظر فيه من يفهم ومن لا يفهم فيهلك . . .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وقال أبو العباس أحمد بن عطاء البغدادي رحمه الله في بعض كلامه : علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد ، وصدق التوحيد أن يكون القائم به واحداً . يريد بذلك أن ينسى العبد رؤية توحيده في توحيده ، برؤية قيام الله عز وجل له بذلك قبل خلقه ، لأنه لولم يردهم بذلك ما أرادوه ولا وحدوه » .

وميز كذلك في المعرفة ثلاث درجات . فقد أنهى الأبواب الثلاثة التي خصصها للمعرفة ، وجمع فيها أقوال المشايخ التي شرح معظمها ، والتي لا يؤلف بينها ترتيب (أدركته) ـ بقوله : « والمعرفة على ثلاثة أوجه : معرفة إقرار ، ومعرفة حقيقة ، ومعرفة مشاهدة . وفي معرفة المشاهدة يندرج الفهم والعلم والعبارة والكلام » . وأكاد أفهم من هذا القول أن في المعرفة ثلاث درجات : معرفة العامة وهي الإقرار بربوبيته سبحانه ووحدانيته ، ومعرفة العلماء وهي المعرفة العقلية بالاستدلال بالآثار عليه ، ومعرفة الواصلين وهي المعرفة الكشفية .

وهذه ، على كل حال ، بعض الأقوال وقد رتبتها بعض الترتيب :

« سئل الشبلي : ما بدء هذا الشأن وما انتهاؤه ؟ قال : بدؤه معرفته وانتهاؤه توحيده » . وأكاد أفهم من هذا القول : أن البدء يكون بالإقرار واليقين أنه واحد ، وفي النهاية لا يبقى إلا الواحد ، ففي البدء الكثرة : العارف والمعروف والمعرفة ، وفي النهاية تنتفي الكثرة ويكون التوحيد الحق .

« وقيل لأبي الحسين النوري : بم عرفت الله تعالى ؟ فقال : بالله . قيل : فما بال العقل ؟ قال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله . لما خلق الله العقل قال له : من أنا ؟ فسكت ، فكحله بنور الوحدانية ، فقال : أنت الله . فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله » .

« وقال أحمد بن عطاء : المعرفة معرفتان : معرفة حق ومعرفة حقيقة . فمعرفة الحق معرفة وحدانيته على ما أبرز للخلق من الأسامي والصفات . ومعرفة الحقيقة على أن لا سبيل إليها ، لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية ، لقوله عز وجل :[٥٥] ولا يحيطون به علماً » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وقيل : المعرفة وجد والإيمان عطاء . والفرق بين المؤمن والعارف : المؤمن ينظر بنور الله ، والعارف ينظر بالله عز وجل ، وللمؤمن قلب وليس للعارف قلب ، وقلب المؤمن يطمئن بالذكر ولا يطمئن العارف بسواه » .

٢ ـ موضوع علم التصوف

المقامات والأحوال[٥٦] هي الجغرافية الروحية والتاريخ الروحي للرحلة الى الله . هي المحطات التي يتلبث فيها السالك قليلاً أو كثيراً ، والأحداث التي يلاقيها . وكل حياة الصوفي هي هذا السفر . ولذلك كان من تعريفات التصوف أنه علم المقامات والاحوال . ولكل صوفي بعد طريقه ، وعلم التصوف ، من حيث هو علم ، يدرس المتشابهات في الطرق المختلفة ، ولكنه ، من حيث هو تصوّف ، لايهمل كل الإهمال المختلفات .

وقد عرف ابو نصر المقام فقال : « معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع الى الله عز وجل » . وهذا التعريف ينقصه ، ليزداد وضوحاً ، ذكر بعض الخواص ، وسيتدارك ذلك من أتى بعده من علماء التصوف . وحدد المقامات بسبعة ، جعل كل مقام منها يقتضي المقام الذي بعده . وهي : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا . وسيختلف معه في العدد والأسماء والترتيب الذين من بعده .

وعرف الحال بأنه « ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار » . ونقل عن الجنيد تعريفاً آخر : « الحال نازلة تنزل فلا تدوم » . وميز الحال من المقام بأنه ليس كالمقام يحصّل بالمجاهدات والعبادات والرياضات . وعدد من الأحوال عشرة : المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك ، أي لم يحددها بهذا العدد . وكذلك اختلف معه في الأحوال ، عددها وترتيبها ، من أتوا بعده .

وقد خصّ كل مقام وكل حال بباب ، يبدؤه في الغالب بآية أو أكثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبحديث أو أكثر ، ثم ينقل أقوالاً لشيوخ الصوفية يستند إليها ليميز في الأغلب ثلاث درجات في كل مقام وحال : درجة العامّة ، درجة الخاصّة ، درجة خاصّة الخاصّة . ولبيان طريقته في المعالجة أقدّم هذين المثالين :

مقام الصبر ـ بدأ فذكر الآية [٥٧] « إنّما يُوَفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب » . وأتى بتعريف للجنيد « (الصبر) هو حمل المؤن لله تعالى حتى تنقضي أوقات المكروه » . وأورد قولاً لابن سالم يفصّل فيه درجات الصبر : « سألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : على ثلاثة أوجه : مُتَصبّر وصابر وصَبّار : فالمتصبر من صبر في الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز . . والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولا يتمكن منه الجزع ، ويُتوقّع منه الشكوى . . وأما الصبّار فذاك الذي صبره في الله ولله وبالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغيّر من جهة الوجوب والحقيقة لا من جهة الرسم والخلقة » .

وكان قد ذكر ، قبل قول ابن سالم ، خبراً عن الشبلي ، هذا نصه : « وقف رجل على الشبلي رحمه الله فقال له : أيّ صبر أشدّ على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله تعالى . فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال الرجل : لا ، فقال : الصبر مع الله . فقال : لا ، قال : فغضب الشبلي رحمه الله وقال : ويحك فأيش ؟ فقال الرجل : الصبر عن الله عز وجل ، قال : فصرخ الشبلي رحمه الله صرخة كاد أن يتلف روحه » . ويظهر في هذا الخبر درجة جديدة أو معنى جديد للصبر ، وهو أشد الصبر : الاستسلام لأمر الله في أوقات الفترة والفرق بعد الجمع .

وينهي الباب بقوله : والصبر يقتضي التوكل .

حال المشاهدة ـ افتتح الباب بآيتين ، أولاهما :[٥٨] « إنّ في ذلكَ لذكرى لِمَن كان له قلبٌ أو ألقى السّمعَ وهو شهيد » . ثم سرد عدداً من الأقوال للواسطي والحراز والمكي . وذكّر بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر :[٥٩] « اعبد الله كأنك تراه . . » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم قال : « وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال : فالأول منها الأصاغر وهم المريدون ، وهو ما قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : يشاهدون الأشياء بعين العبر ويشاهدونها بعين الفكر . والحال الثاني من المشاهدة الأوساط ، وهو الذي أشار إليه أبو سعيد الخراز رحمه الله حيث يقول : الخلق في قبضة الحق وفي ملكه ، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في وهمه غير الله تعالى . والحال الثالث من المشاهدة ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكي رحمه الله في كتاب المشاهدة ، فقال : إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت ، فشاهدوه في كل شيء ، وشاهدوا كل الكائنات به ، فكانت مشاهدتهم لديه (له) ولهم به ، فكانوا غائبين حاضرين وحاضرين غائبين ، على انفراد الحق في الغيبة والحضور ، فشاهدوه ظاهراً باطناً ، وباطناً ظاهراً ، وآخراً أولاً ، وأولاً آخراً ، كما قال عز وجل :[٦٠] هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم » .

وختم الباب بأن المشاهدة تقتضي حال اليقين .

٣ ـ أصول التصوف وطريقة الاستنباط منها

سبق القول : إن أصول التصوف ، عند القوم ، ترجع الى الكتاب والسنة . والسنة هي ما أثر عن رسول الله من قول وفعل وتقرير ، وأثر عن صحابته ، ويضاف إليهم كبار التابعين بإحسان . والفقهاء يفهمون الكتاب والسنة على ظاهر القول ، وعليه يقيمون علمهم . أما الصوفية فيرون أن لها ظاهراً وباطناً ، وأن فهم الباطن منوط بجماعة مخصوصة ، يدعوها أبو نصر أهل الفهم من أهل العلم ، وهم الصوفية .

ولذلك ضممت الكتب الأربعة من اللمع[٦١] في قسم واحد ، وهي : كتاب أهل الصفوة في الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل ـ كتاب الأسوة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كتاب المستنبطات ـ كتاب الصحابة رضوان الله عليهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويسمي أبو نصر فهم باطن كتاب الله وسنة رسوله الاستنباط ، ولم يسمه التأويل ، وهو الاسم الذي غلب على هذه الطريقة ، ربما لأن التأويل ورد في القرآن في معرض الذم في الآية[٦٢] « هو الذي أنزلَ عليك الكتاب ، منه آياتٌ محكَمات هنّ أمُّ الكتاب ، وأُخَرُ متشابهات . فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله . » ، وربما تجنباً للخلط بينه وبين التأويل عند بعض الفرق الإسلامية .

واسم « الاستنباط » مأخوذ من القرآن الكريم ، من الآية « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ، وأولو الأمر ههنا أهل العلم .

فما طريقة الاستنباط ؟ قال أبو نصر : « المستنبطات ما استنبط أهل الفهم من المتحققين بالموافقة لكتاب الله عز وجل ، ظاهراً وباطناً ، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ظاهراً وباطناً ، والعمل بها بظواهرهم وبواطنهم » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :[٦٣] « من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم مالم يعلم » ، وهو « علم الإشارة . لقلوب أصفيائه ، من المعاني المذخورة واللطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلم وطرائف الحكم في معاني القرآن ومعاني أخبار رسول الله » .

ولم يتفرد أهل الحقائق بالاستنباط ، فللفقهاء مستنبطات مشهورة في آيات القرآن والأخبار ، وكذلك أهل الكلام والنظر ، احتجاجاتهم كلها مستنبطات .

فمن المؤهلون للاستنباط ؟

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال :[٦٤] « من أراد العلم فليثوّر القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين » .

وقال الله تعالى :[٦٥] « الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب . . » . فعلم **أهل العلم** بهذا الخطاب أن في كتاب الله هدى وبياناً لهم في جميع ما أشكل عليهم من **أحكام الدين** ، بعد إيمانهم بالغيب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم قال في آية أخرى :[٦٦] « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » . فأفادت هذه الآية **لأهل الفهم من أهل العلم** ، بعد إيمانهم بالغيب أيضاً ، أن تحت كل حرف من كتاب الله تعالى كثيراً من الفهم مذخوراً لأهله على مقدار ما قسم لهم . واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن ، مثل قوله عز وجل :[٦٧] « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . وقالوا في معنى « من شيء » : **من علم الدين وعلم الأحوال** التي بين الخلق وبين الله تعالى .

وقال عز وجل :[٦٨] « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . فعلم أهل الفهم من أهل العلم أن لا سبيل الى التعلق بالأصوب إلا بالتدبر والتفكر والتيقظ والتذكر .

وعلموا ذلك أيضاً من قوله تعالى :[٦٩] « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » .

ثم استفاد أهل الفهم من هذه الآية أيضاً أن التدبر والتفكر والتذكر لا وصول إليها إلا بحضور القلب لقول الله عز وجل :[٧٠] « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

ثم لم يترك على ذلك حتى خصص القلب بوصفه ، فقال :[٧١] « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ثم لم يترك على ذلك حتى أقام إماماً للخلق في القلب السليم ، فقال عز وجل :[٧٢] « وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم » . قال أهل الفهم : القلب السليم الذي ليس فيه غير الله .

وقال الله تعالى :[٧٣] « والله يدعو الى دار السلام ، ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » . قال سهل بن عبد الله : الدعوة عامة والهداية خاصة . والهداية يصطفي الله لها من شاء من عباده . قال تعالى :[٧٤] « الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » . قال المفسرون : ومن الناس يعني به الأنبياء . ولكن الله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يقول :[٧٥] « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات » . ففرق بين الاصطفاء للرسل والاصطفاء الذي ذكر لعباده الذين أورثهم الكتاب وهم المؤمنون . ثم بين أنهم متفاوتون في أمر الله بالاستباق الى الخيرات . قال الله تعالى :[٧٦] « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات » . فمنهم من سمع الخطاب وقبله وأقرّ به ، وحال بينه وبين العمل به الاشتغال بالدنيا والغفلة ومتابعة النفس . قال عز وجل :[٧٧] « أفرأيت من اتخذ آلهه هواه ، وأضلّه الله على علم » . ومنهم من سمع الخطاب فأجاب وتاب وأناب وعمل في الطاعات وتحقق في الأحوال وصدق في المعاملات ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه وذكر ما أعدّ لهم ، فقال :[٧٨] « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنّه حياةً طيبةً ولنَجزِيَنّهم بأحسنِ ما كانوا يعملون » . قالوا : الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة بالله عز وجل .

ومنهم من شرّفهم الله تعالى بذكره لهم ، فقال :[٧٩] « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » . ثم خصّ من هؤلاء قوماً ، فقال :[٨٠] « الراسخون في العلم » .

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : « الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب وفي سرّ السّرّ ، فعرّفهم ما عرّفهم . . . فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص ، فاستخرجوا الدر والجواهر ونطقوا بالحكم .

« ومنهم من كانت البحار عنده كتفلة فيما شاهد من المستأثرات . . فغاص بسرّه عند صفاء ذكره وحضور قلبه في بحار الفهم ، فوقع على الجوهر العظيم . وهو الذي علم مصادر الكلام من أين ، فوقع على العين ، فأغناهم عن البحث والطلب والتفتيش . » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال الله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . » .

قال أبو سعيد الخراز رحمه الله فيما بلغني عنه : « أول إلقاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤه عليك . ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من جبريل عليه السلام وقراءته على النبي صلى الله عليه وسلم ، لقول الله عز وجل :[٨١] « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك » . ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من الحق ، وذلك قول الله عز وجل :[٨٢] « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

ومخرج الفهم في استماعك من الله تعالى : عند حضور قلبك وغيبتك عن أشغال الدنيا وعن نفسك بقوة المشاهدة . . وسرعة الوصول الى المذكور بالغيب بكلام اللطيف الخبير .

وشرح هذا كله مفهوم ومستنبط من قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » .

قال أبو سعيد الخراز : « كل ما أدرك الخلق من الله فإنما أدركوا غيباً خارجاً عن نعوت الحقائق . . . والغيب هو ما أشهد الله تعالى القلوب من إثبات صفات الله وأسمائه وما وصف به نفسه وما أدى إليه الخبر . فأثبتوا الصفات ولم يدعوا إدراكها على نهاية ، ألا تسمع الى قوله تعالى :[٨٣] « ولو ان مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » ؟ فإذا كان وصف كلامه لا يُدْرَك ولا يوصَل الى نهاية فهمه ، فكيف يُدْرَك حقيقة وصفه وهويته وكنهه ؟ » .

وقد ورد في القرآن وصف أرباب القلوب ، قال تعالى :[٨٤] « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » . فابتغَوْا إليه الوسيلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال عز وجل :[٨٥] « أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » . فاستفاد أهل الفهم من هذه الآية أن أول المسارعة الى الخيرات هو في اختيار القلة على الكثرة والزهد بالدنيا .

ووصفهم فقال :[٨٦] « الذين هم من خشية ربهم مشفقون » . فوصفهم بالإشفاق من الخشية . والخشية والإشفاق اسمان باطنان ، وهما عملان من أعمال القلوب ، فالخشية سر في القلب ، والإشفاق من الخشية أخفى من الخشية ، وهو الذي ذكر الله تعالى فقال :[٨٧] « يعلم السر وأخفى » .

ثم من بعد هذه المرتبة الشريفة ، قال :[٨٨] « والذين هم بآيات ربهم يؤمنون » . وكانوا قبل الخشية والإشفاق مؤمنين بآيات الله ، فعلم أنه أراد بذلك زيادة الإيمان . واستنبط أهل الفهم أن زيادة الإيمان لا نهاية لها .

ثم قال عز وجل :[٨٩] « والذين هم بربهم لا يشركون » . فذكر أنهم لا يشركون بربهم بعدما وصفهم بالخشية والإشفاق والإيمان . فاستفاد أهل الفهم أيضاً من ذكر الشرك ههنا أنه الشرك الخفي الذي يعارض القلوب من رؤية الطاعات وطلب الأعواض ، فعند ذلك جدّوا وتضرعوا الى الله تعالى ، وطلبوا منه الخلاص لقلوبهم بصدق الإخلاص في الإخلاص .

ثم قال عز وجل :[٩٠] « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون » . فاستنبط أهل الفهم من هذه الآية : أن وجل قلوبهم بعدما آتوا هو الوجل من الذي لا سبيل الى كشفه ولا وقوف لأحد عليه من خلقه ، وهو علم الخاتمة . فعند ذلك تقطع نياط قلوبهم وذهلت عقولهم ، وأقبلوا على الله بصدق اللجأ وإظهار الفاقة ودوام الافتقار .

وأرباب القلوب درجات . قال الله تعالى :[٩١] « والسابقون السابقون أولئك المقربون » . ثم بين فضل المقربين على من دونهم من الأبرار ، فقال :[٩٢] « كلا ، إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدرك ماعليون ! » . ثم قال :[٩٣] « إن الأبرار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون » . ووصف الكرامات التي أكرم بها الأبرار وما خصهم به من النعيم ، فقال :[٩٢] « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » ، أي إن أهل الجنة يعرفونهم بالنضارة في وجوههم من النعيم الذي خصوا به . ثم قال :[٩٢] « يسقون من رحيق مختوم » . ولم يصف لأهل الجنة أنهم يسقون من الرحيق المختوم . ثم قال :[٩٢] « ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون » . فخص الأبرار من بين أهل الجنة بالرحيق المختوم ، وفضل شراب الأبرار على شراب أهل الجنة بمزاجه ، لأن مزاجه من التسنيم ، والتسنيم هو العين التي يشرب بها المقربون .

واستنبط أهل الفهم منها معنيين : الأول أن شراب الأبرار ممزوج وشراب المقربين صرف غير ممزوج ، والثاني أن فضل الأبرار على أهل الجنة بمزج شرابهم من التسنيم ، وهو العين التي يشرب بها المقربون .

هذا ملخص ما كتبه أبو نصر عن الاستنباط من القرآن الحكيم ، وعن أهل الفهم أرباب القلوب المؤهلين له ودرجاتهم . ولا يختلف الاستنباط من السنة عنه من القرآن .

وأنهي هذا القسم بوقفة قصيرة عند باب معاني الحروف والأسماء :

قيل : إن جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم ، ما عبر عنه وما أشير إليه ، مستنبط من حرفين من أول كتاب الله ، وهو قوله : باسم الله والحمد لله ، لأن معناه بالله ولله . والإشارة في ذلك : أن جميع ما أحاط به علوم الخلق وأدركته فهومهم ليست هي قائمة بذواتها ، إنما هي بالله ولله .

وقيل لأبي العباس بن عطاء رحمه الله : إلى ماذا سكنت قلوب العارفين ؟ فقال : الى أول حرف من كتابه وهو الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ، فإن معناه أن بالله ظهرت الأشياء ، وبه فنيت ، وبتجليه حسنت ، وباستتاره قبحت وسمجت . . .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد قيل أيضاً : إن اسم الله الأعظم هو الله ، لأنه إذا ذهب عنه الألف يبقى لله ، وإن ذهبت عنه اللام يبقى له فلم تذهب الإشارة ، وإن ذهبت عنه اللام فيبقى هاء وجميع الأسرار في الهاء ، لأن معناه : هو . وجميع أسماء الله تعالى إذا ذهب عنها حرف واحد يذهب المعنى ولا يبقى فيها موضع الإشارة . فمن أجل ذلك لا يسمى به غير الله تعالى .

٤ ـ آداب الصوفية

عرف بعض شيوخ الصوفية التصوف بالأدب . فالجريري مثلاً سئل عن التصوف فقال : الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني .

ويميز أبو نصر ، في كتاب آداب المتصوفة[٩٣] ، بين ثلاث مراتب من الأدب . يقول :

« والناس في الأدب متفاوتون وهم على ثلاث طبقات : أهل الدنيا ، وأهل الدين ، وأهل الخصوصية من أهل الدين :

« فأما أهل الدنيا فإن أكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب ومعرفة الصنايع .

« وأما أهل الدين فإن أكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وطهارة الأسرار وحفظ الحدود وترك الشهوات وتجريد الطاعات واجتناب الشبهات والمسارعة الى الخيرات .

« وأما أدب أهل الخصوصية من أهل الدين فإن أكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعقود بعد العهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادي والطوارق واستواء السرّ مع الإعلان وحسن الأدب في مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور والقرب والدنوّ والوصلة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وآداب المتصوفة تشمل أدب الجوارح والقلوب مع ربهم وفيما بينهم ومع خلق الله الآخرين . وقد بسطها أبو نصر في ستة وعشرين باباً هي آدابهم في الطهارة والصلاة والزكاة والصدقة والصوم والحج والصحبة ومجاراة العلم وفي وقت الطعام والاجتماعات والضيافات وفي السماع والوجود وفي اللباس والسفر وفي بذل الجاه والسؤال والحركة من أجل الأصحاب وإذا فتح عليهم شيء من الدنيا وفي الكسب والتصرف في الأسباب وفي الأخذ والعطاء وإدخال الرفق على الفقراء وآداب المتأهلين ومن له ولد وفي الجلوس والمجالسة وفي الجوع والمرض وآداب المشايخ ورفقهم بالأصحاب وآداب المريدين والمبتدئين وآداب من يتفرد ويختار الخلوة وفي الصداقة وعند الموت .

وحين يقرأ أمثالنا من أهل الدنيا هذه الأبواب قد ينكر على القوم أشياء كثيرة ، ولكنه لا يستطيع إلا أن يقف متعجباً ومعجباً من الدرجات التي بلغوها في دقة الملاحظة والذوق واللطف والرفق والإيثار والتضحية بالنفس .

وسأكتفي بمقتطفات مما في باب الصوم ، ففيه نكت ولطائف تعبر عن بعض ما ذكرت من آداب الصوفية وتغني عن التعرض لما في الأبواب الأخرى :

قال أبو نصر بعد أن تحدث عن الصوم وثوابه وصلته بالصبر وشروط صحته :

« وأما صوم التطوع فإن جماعة من المشايخ كانوا يصومون في السفر والحضر على الدوام . . وكان أدبهم في صومهم ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال[٩٤] : الصوم جُنّة ، ولم يقل جنة من أي شيء ، فقالوا : معناه أن الصوم جنة من النار ، لأن الصوم للصائم في الدنيا جنة من سهام الأعداء الذين يدعون الى النار وهم : الشيطان والنفس والهوى والدنيا والشهوات . . »

وجماعة أخرى اختاروا أفضل الصيام : صيام يوم وإفطار يوم ، وقالوا : « لأنه أشد الصيام . . لأن النفس إذا ألفت الصوم مع الدوام وتعودت اشتد عليها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الإفطار ، وإذا ألفت الإفطار وتعودت اشتد عليها الصوم ، وهذا الصوم : صوم يوم وإفطار يوم ، لا تتعود فيه النفس الإفطار ولا الصوم . .

« ومن كره المداومة على الصيام كره ذلك لأن النفس معتادة فإذا ألفت شيئاً واعتادته يكون قيامها فيه بحظوظها لا بحقوقها . . »

وقال : « فأما الصوفية والفقراء المجردون الذين . . . تركوا المعلومات وقنعوا بما قسم الله تعالى من الأرزاق ، ولا يدرون أي وقت يسوق الله تعالى إليهم أرزاقهم من الغيب . . . فأوقات هؤلاء أتم من الصائم الذي يرجع الى معلوم . . من الطعام . . .

« ولهؤلاء الفقراء آداب في صومهم . . . فمن آدابهم : أن لا يصوم واحد من الجماعة إلا بإذن أصحابه ، لأنه إذا صام شغل قلوب أصحابه بإفطاره وهم على غير معلوم . وإن صام واحد من الجماعة برضى أصحابه ، وحضر المفطرين شيء من الطعام فليس يلزمهم أن ينتظروا وقت إفطار الصائم . . إلا أن يكون ضعيفاً . . أو يكون شيخاً فلحرمته . وليس للصائم أيضاً أن يأخذ نصيباً لنفسه ويدخرها لوقت إفطاره لأن ذلك ضعف في حاله . . .

« وإذا كانوا جماعة عادتهم الصوم وفيهم جماعة عادتهم الإفطار فليس للصوام أن يدعوا هؤلاء المفطرين الى أحوالهم . . . ومساعدة الصائم للمفطر على الإفطار أحسن من مساعدة المفطر للصائم بالصوم . . .

« وإن كانوا جماعة مترافقين . . . وبينهم مريد يحشوه (يحشونه) على الصيام ، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكلفوا له رفقاً . . . وإن كانوا جماعة ومعهم شيخ يصومون بصومه ويفطرون بإفطاره إلا أن يأمرهم بغير ذلك . . .

« وحكي عن بعض المشايخ الأجلة أنه قال : صمت كذا وكذا سنة لغير الله ، وذلك أن شاباً كان يصحبه ، فكان يصوم حتى ينظر إليه ذلك الشاب فيتأدب به . . »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأدب الصوفي

وأضيف في هذا القسم إلى كتاب آداب المتصوفة كتاب المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل[٩٥] . أي الأدب الصوفي ، ويحتوي على مختارات من رسائلهم وأشعارهم ودعائهم ووصاياهم . مادام أبو نصر نفسه جعل أدب أهل الدنيا ، أدب الفصاحة والبلاغة ، والأدب بمعنى الخلق وأدب السلوك صنفاً واحداً . والأدب الصوفي ولا شك يختلف بمعانيه وإشاراته عن أدب أهل الدنيا ، ولكنه يظل أدباً من حيث هو فن وتعبير .

والأدب الصوفي العربي ، بل الأدب الديني عامة ، لم ينل من الدراسة ما هو حق له . ولا أريد أن أتورط ، ولو باختصار شديد ، في مثل هذه الدراسة . كل ما أود أن أقوله هو أن هناك أجناساً أدبية في الأدب العربي غابت عن أنظار الدارسين أو كادت ، وربما كان فيها من الطرافة والجمال والمعاني أكثر مما في الأجناس المعترف بها أو مثلها . من هذه الأجناس : أدب الحكاية ، أدب الدعاء والمناجاة ، أدب الوعظ والقصص ، أدب الوصايا ، أدب جوامع الكلم الخ . . وفيها كلها يكون الأدب الصوفي الجزء الأقوى والأبعد غوراً في المعاني .

٥ ـ مسائل ومشكلات في التصوف اختلفت فيها الآراء

وقد ضممت في هذا القسم كتباً أربعة[٩٦] هي : كتاب المسائل واختلاف أقاويلهم في الأجوبة ـ كتاب السماع ـ كتاب الوجد ـ كتاب إثبات الآيات والكرامات .

أما الكتاب الأول فيحتوي إحدى وأربعين مسألة ، منها مالا تتجاوز السطرين والثلاثة ومنها ما يتجاوز الصفحة الى الصفحتين ، ومنها ما هو بين بين . وهذه بعض الأمثلة :

مسألة : سئل الجريري رحمه الله تعالى عن البلاء فقال : البلاء على ثلاثة أوجه : على المخلصين نقم وعقوبات ، وعلى السابقين تمحيص وكفارات ، وعلى الأنبياء والصديقين من صدق الاختبارات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مسألة : سئل أبو يزيد رحمه الله تعالى عن قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا : فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات . . . » . قال أبو يزيد : السابق مضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على باب الهيبة ، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة مقتول بسيف الندامة مضطجع على باب الكرم ، والظالم مضروب بسوط الأمل مقتول بسيف الحرص مضطجع على باب العقوبة .

مسألة في الجمع والتفرقة : الجمع جمع المتفرقات ، والتفرقة تفرقة المجموعات ، فإذا جمعت قلت : الله ولا سواه ، وإذا فرقت قلت : الدنيا والآخرة والكون . . . فالجمع أصل والتفرقة فرع ، فلا تعرف الأصول إلا بالفروع ، ولا تثبت الفروع إلا بالأصول ، وكل جمع بلا تفرقة زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل .

وقد تكلم في معنى الجمع والتفرقة المشايخ والمتقدمون . . . وأشار قوم الى أن جمعهم بالمعرفة وفرقهم في الأحوال . وللجنيد في معرفة الجمع والتفرقة :

فتحققتك في سرّي فناجاك لساني
فاجتمعنا لعان وافترقنا لعان
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دان

وقال ، أظنه النوري : الجمع بالحق تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره جمع به . . . وقد ذهب الجنيد رحمه الله تعالى إلى أن قربه بالوجد جمع وغيبته في البشرية تفرقة . وقال أبو بكر الواسطي رحمه الله : إذا نظرت الى نفسك فرقت ، وإذا نظرت الى ربك جمعت ، وإذا كنت قائماً بغيرك فأنت ميت . . .

وأما الكتب الثلاثة الأخرى فسأكتفي منها بعرض موجز لكتاب الوجد . وقد تأثر أبو نصر فيه بأبي سعيد بن الأعرابي ، حتى إنه جعل الباب السادس والأخير من هذا الكتاب « جامعاً مختصراً من كتاب الوجد لابن الأعرابي » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأول سؤال في الوجد عن الوجد ماهو ؟ قال عمرو بن عثمان المكي : لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنها سر الله تعالى عند المؤمنين الموقنين . وقيل : إن الوجد مكاشفات من الحق .

والوجد وجدان : وجد ملك ووجد لقاء : فكل وجد يجدك فيملكك فذاك وجد ملك ، وكل وجد تجده فذاك وجد اللقاء ، تلقى بقلبك شيئاً ولا يثبت . . .

والواجدون على طبقتين : واجد ومتواجد .

فأما الواجدون فهم على ثلاثة أصناف : فصنف منهم وجدهم مصحوبهم ، إلا أنهم يعارضهم في الأحايين دواعي النفوس والأخلاق البشرية فيكدر عليهم الوقت ويتغير عليهم الحال . والصنف الثاني وجدهم مصحوبهم إلا أنه إذا طرأ عليهم ما يشاكل عليهم وجدهم من طوارق السمع تنعموا بذلك ثم يتغير عليهم الوجد . والصنف الثالث وجدهم مصحوبهم على الدوام ، وقد أفناهم ذلك الوجد فليست فيهم فضلة عن موجودهم .

وأما المتواجدون فهم أيضاً على ثلاثة أصناف في تواجدهم : فصنف منهم المتكلفون والمتشبهون وأهل الدعابة . وصنف منهم الذين يستدعون الأحوال الشريفة بالتعرض بعد قطع العلائق الشاغلة والأسباب القاطعة ، فذلك التواجد يجمل بهم . وصنف ثالث أهل الضعف من أبناء الأحوال وأرباب القلوب ، فإذا عجزوا عن ضبط جوارحهم وكتمان ما بهم تواجدوا ، فهم أهل الضعف من أهل الحقائق .

وفي الوجد ، من الأتم ؟ أالواجد الساكن أم الواجد المتحرك ؟ يرجع ابن الأعرابي السكون والحركة للوارد . فالواردات من الأذكار « منها ما يوجب السكون ، فالسكون فيها أفضل من الحركة ، ومنها ما يوجب الحركة ، فالحركة فيها أتم » . فإذا كان الوارد « لا يلائم العقول المخلوقة إذ يكون نوره أقوى وبرهانه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقوى فيقوم شاهده منه ويعجز العقل عن إدراكه ، فحكم الحركة يكون أتم » . وإذا كان الوارد « للعقل ملائماً فيدركه ويساكنه فلا يظهر معه حركة لتمكّن العقل » يكون السكون أتم . « فمن شرّف أهل السكون إنما شرّفهم بفضل عقولهم وشدة تمكّنهم ، ومن فضل المتحرّكين فضّلهم بقوة الوارد من الذكر الذي ينخنس دون (يجب أن يكون : دونه) فهم العقل » . ولكن منذا الذي يستطيع أن يقول عن عقلين إنهما متساويان أو عن واردين إنهما متساويان ؟ فما دام ذلك ممتنعاً فلا معنى « لتفضيل الساكن على المتحرك ولا المتحرك على الساكن لاختلاف الحال الواردة التي توجب الحركة والحال التي توجب السكون » .

٦ ـ لغة التصوف

خصص أبو نصر للمصطلح الصوفي كتاباً جعل عنوانه[٩٧] « كتاب البيان عن المشكلات » . وقد يبدو هذا الاسم غريباً ، ولكنه في الحقيقة بلغ الغاية في الدقة ، فتحت كل لفظة صوفية إشكال . وليس الإشكال في ذاتية التجربة الصوفية وحدها ، بل هو أيضاً في غرابتها . فالتجربة الصوفية لا يقدر عليها إلا القليل ، ولا يقدم عليها من القادرين إلا الآحاد . والتجربة الصوفية بصفتها هذه ، الغرابة والندرة ، تختلف عن التجربة الأدبية والفنية ، فهذه وإن كانت ذاتية إلا أنها تلابس عدداً كبيراً من الناس وتخالط الأنفس كثيراً ، إلا إذا لامست التجربة الصوفية أو امتزجت بها . وتخالف التجربة الفلسفية أيضاً ، فهما وإن اتفقتا في الندرة ، إلا أن التجربة الفلسفية تظل عقلية يمكن أن يتفق في فهمها عدد مهما قل من الناس ، إلا إذا كانت تصاقب التجربة الصوفية أو تداخلها .

ولذلك تستغلق اللغة الصوفية على من يقرؤها ، ولا تتكشف إلا بعد مقدمات ، أولها معرفة مصطلح القوم ، ثم ممارسة النصوص الصوفية طويلاً . بل لا يكفي كل ذلك ، إذ لابد لمن يعاني دراسة التصوف دراسة متعمقة من أن يكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مهيأ للتجربة الصوفية ، إن لم أقل قد دخل فيها بدرجة ما أو على نحو ما ، عندئذ ينفذ الى حد ما الى ما وراء الألفاظ من معان وأحوال .

وقد عرف أبو نصر في كتابه هذا زهاء مائة وستين لفظة بقليل من الكلام وكثير من الدقة في التمييز بين مدلولات الألفاظ المتقاربة أو المتواقعة ، ولم يغفل الاختلاف بين شيوخ الصوفية في فهمهم للألفاظ ، واستشهد في حدود الضرورة ببعض أقوال كبارهم . وقد وجدت ، في الأمثلة التي سأورد ، أن مما يوضح تعريف اللفظة وما قد يكون طرأ على دلالاتها من تطور ، أن أقرن ما أتى به أبو نصر بما قاله ابن عربي في فتوحاته بعد ما يزيد على قرنين ونصف :

قال أبو نصر :

الإشارة ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه . قال أبو علي الروذباري رحمه الله : علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي .

والإيماء إشارة بحركة جارحة . قال الجنيد رحمه الله : جلست عند ابن الكَرّيني فأومأت برأسي الى الأرض ، فقال : بعد ، ثم أومأت برأسي الى السماء ، فقال : بعد . وقال الشبلي رحمه الله : من أومى إليه فهو كعابد الوثن ، لأن الإيماء لا يصلح إلا للأوثان . وقال القائل :

ولي عند اللقاء ، وفيه عتب ... بإيماء الجفون الى الجفون
فأبهت خيفة وأذوب خوفاً ... وأفنى عن حراك أو سكون

والرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله . قال القنّاد :

إذا نطقوا أعجزْك مرمى رموزهم ... وإن سكتوا هيهات منك اتصاله

فهذه ألفاظ ثلاثة متقاربة في المعنى ، ميز كل لفظة من الأخرى تمييزاً دقيقاً بحيث لا تختلط مدلولاتها بعد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يأت ابن عربي على ذكر لفظتي الإيماء والرمز ، وقال عن الإشارة :

الإشارة تكون مع القرب ومع حضور الغيب وتكون مع البعد .

فبين متى تكون الإشارة ولكنه لم يبين ماهي .

قال أبو نصر :

التفريد إفراد المفرد برفع الحدث وإفراد القدم بوجود حقائق الفردية . . . قال الحسين بن منصور (الحلاج) رحمه الله ، في بعض ما تكلم به عند قتله : حسب الواجد إفراد الواحد .

التجريد ما تجرد للقلوب من شواهد الألوهية إذا صفا من كدورة البشرية . قال بعض الشيوخ وقد سئل عن التجريد ، فقال : إفراد الحق من كل ما يُجري وإسقاط العبد في كل ما يُبدي .

والتجريد والتفريد والتوحيد ألفاظ مختلفة لمعان متفقة وتفصيلها على مقدار حقائق الواجدين وإشارتهم . قال القائل :

حقيقة الحق حقّ ليس يعرفه إلا المجرد فيه حق تجريد

وقال ابن عربي :

التفريد وقوفك بالحق معك

التجريد إماطة السوى والكون عن القلب والسر .

وتعريف ابن عربي أخصر وأدق من تعريف أبي نصر .

ونرجع فنقول مع أبي علي الروذباري : علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي . فكل صوفي ينطق عن حاله ويفهم من يفهم على قدر حاله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٧ ـ رد الغريب من كلمات الصوفية إلى معناه الصحيح

وأُدخل في هذا القسم الأبواب السبعة عشر الأولى[١٨] من « كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التي ظاهرها مستشنع وباطنها صحيح مستقيم »

عرّف أبو نصر الشطح فقال : « عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته » . والشطح لفظة مأخوذة من الحركة . فهو « حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم فعبروا عنه . . ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق فيفيض من حافتيه يقال شطح الماء في النهر . فكذلك المريد الواجد إذا قوي وجده ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة أنوار حقائقه سطع ذلك على لسانه » .

وأورد أبو نصر في الكتاب الذي خصصه للمصطلح الصوفي شعراً للقنّاد لم يشرحه . قال القناد :

شطح الحقيقة والأحوال بينهما ... شطح لذا البين يزهو بين هاتين
فالحال كالحال في التلوين شاطحها ... والعين تدني الى شطح اللقاءين

ويبدو من هذا الشعر أن للشطح أنواعاً تتبع درجات المريد الواجد : فهناك شطح الحال وهو لمن لم يصل ومن هو في التلوين ، وشطح الواصلين أهل التمكين وهو شطح الحقيقة ، وشطح هو بين بين .

وأياً ما كان الشطح فليس لأحد أن يقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم فيبسط لسانه في التشنيع عليهم ، بل عليه أن يرفع الإنكار عنهم ويكل أمورهم الى الله . وإذا أراد أن يفهم ما وراء هذه الشطحيات من معانٍ ، فعليه أن يرجع الى مَن مِن القوم بان شرفه وفضله بفضل علمه وسعة معرفته . فكما يُرجعَ فيما يشكل في علم الرواية الى أهل الرواية ، وفي علم الدراية وهو علم الفقه والأحكام إلى أهل الدراية لا الى أهل الرواية ، وفي علم القياس والنظر وهو علم الجدل الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أهله لا الى أهل الرواية والدراية ، كذلك يرجع في علم الحقائق والأحوال الى أهله وحدهم ، لاسيما أنه « يمكن أن توجد هذه العلوم كلها في أهل الحقائق ، ولا يمكن أن يوجد علم الحقائق في هؤلاء إلا ما شاء الله » .

ثم أخذ أبو نصر يعرض شطحيات لأبي يزيد والشبلي والنوري وأبي حمزة والواسطي ، ويتبع كل شطحية بشرحها . وعرج خلال ذلك على ما جره علم القوم ، وشطحيات بعضهم خاصة ، عليهم من سوء القالة وما وقع بهم من أذى ومحنة . وذكر حكاية ابن يزدانيار الذي[٩٩] « كان ممن صحب المشايخ وسافر معهم وتكلم وأجاب عن المسائل الكثيرة في علوم المعارف والأحوال والمقامات . فمضى على ذلك برهةٌ من الدهر . فلما رجع إلى ناحيته وأنسته أهواؤه ومال الى الرياسة . . فبسط لسانه في مشايخه بالوقيعة ونسبهم الى البدعة والضلالة . . . فضيع الأمانة وحالف الخيانة . . »

وسأكتفي بذكر مثال واحد ، شطحية لأبي يزيد . وكان الجنيد قبل أبي نصر قد شرح في كتاب له عدداً من شطحيات أبي يزيد ، فنقلها عنه أبو نصر لأنه « من المحال أن أجد للجنيد رحمه الله تفسيراً لكلامه فأدع ذلك وأتكلم من عندي له جواباً غيره » . ولكنه زاد من عنده كلاماً على كلام الجنيد ، لأن الجنيد وقف عند شرح حال أبي يزيد ولم يزد ، ولأن شرحه يحتاج الى شرح .

ورأى الجنيد في شطحيات أبي يزيد أنه كان « من كلام أبي يزيد رحمه الله ، لقوته وغوره وانتهاء معانيه ، مغترَف من بحر قد انفرد به . . ثم إني رأيت من حاله حالاً قل من يفهمها أو يعبر عنها عند استماعها . . » . أما رأيه في أبي يزيد فهو « أنه قد غرق فيما وجد منها وذهب عن حقيقة الحق إذا (إذ) لم يرد عليها ، وهي معانٍ غرقته على تسارات من الغرق ، كل واحدة منها غير صاحبتها . . . أما ما وصف من بدايات حاله فهو قوي محكم ، قد بلغ منه الغاية . وقد وصف أشياء من علم التوحيد صحيحة . إلا أنها بدايات فيما يطلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منها المرادون لذلك » وقال : « لو أن أبا يزيد رحمه الله على عظم إشارته خرج من البداية والتوسط ! ولم أسمع له نطقاً يدل على المعنى الذي ينبئ عن الغاية » . وأبو نصر لا يوافق على هذا الرأي ، ويرجعه الى غيرة الحق عليهم .

ذكر عن أبي يزيد أنه قال :

رفعني مرة فأقامني بين يديه ، وقال لي : يا أبا يزيد ، إن خلقي يحبون أن يروك . فقلت : زيني بوحدانيتك ، وألبسني أنانيتك ، وارفعني الى أحديتك ، حتى إذا رآني خلقك قالوا : رأيناك ، فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك .

قال الجنيد في كتاب تفسيره لكلام أبي يزيد :

هذا كلام من لم يُلبسه حقائق وجد التفريد في كال حق التوحيد ، فيكون مستغنياً بما ألبسه عن كون ما سأله . وسؤاله لذلك يدل على أنه مقارب لما هناك . وليس المقارب للمكان بكائن فيه على الإمكان والاستمكان . وقوله : ألبسني وزيني وارفعني ، يدل على حقيقة ما وجده مما هذا مقداره ومكانه ، ولم ينل الحظوة إلا بقدر ما استبانه .

قال أبو نصر :

فهذا الذي فسر الجنيد رحمه الله ، فقد وصف حاله فيما قال ، وبين مكانه فيما أشار إليه أبو يزيد رحمه الله . فأما ما يجد المتعنت والمعاند مقالاً بالطعن على من يقول مثل ذلك فلم يبين . والى ذلك المعنى والمقصد وبالله التوفيق : قوله : رفعني مرة فأقامني بين يديه ، يعني : أشهدني ذلك وأحضر قلبي لذلك ، لأن الخلق كلهم بين يدي الله تعالى ، لا يذهب عليه منهم نفس ولا خاطر ، ولكن يتفاضلون في حضورهم لذلك ومشاهدتهم . . . وأما قوله : قال لي وقلت له ، فإنه يشير بذلك الى مناجاة الأسرار وصفاء الذكر عند مشاهدة القلب لمراقبة الملك الجبار في آناء الليل والنهار . وأما قوله : زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أحديتك ، يريد بذلك الزيادة والانتقال من حاله الى نهاية أحوال المتحققين بتجريد التوحيد والمفردين لله بحقيقة التفريد . . . وأما قوله : ألبسني أنانيتك حتى إذا رآني خلقك قالوا : رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك ، فهذا وأشباه ذلك تصف فناءه ، وفناءه عن فنائه ، وقيام الحق عن نفسه بالوحدانية ، ولا خلق قبل ولا كون كان . . .

٨ ـ نفي ما ليس من التصوف عنه من الغلط والضلالة

ويشمل هذا القسم العشرين باباً[١٠٠] من كتاب « تفسير الشطحيات . . . » ، وكان من حقها أن تكون كتاباً مفرداً . بدأ فيها أبو نصر فبين أن طريق التصوف محفوفة بالمخاطر ، كما جاء عن أبي علي الروذباري إذ قال : « قد بلغنا في هذا الأمر الى مكان مثل حد السيف ، فإن قلنا كذا ففي النار ، وإن قلنا كذا ففي النار » . ولا يسلم إلا من أحكم أساسه على ثلاثة أشياء : الأول اجتناب جميع المحارم كبيرها وصغيرها ، والثاني أداء جميع الفرائض عسيرها ويسيرها ، والثالث ترك الدنيا قليلها وكثيرها إلا مالا بد للمؤمن منه .

وصنف أبو نصر الغالطين في طبقات ثلاث : الأولى من غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة ، وهؤلاء لا يسلمون من الضلالة . والثانية من غلطوا في الفروع من قلة معرفتهم بالأصول ، وآفة هؤلاء أقل وإن كانوا بعيدين من الإصابة . والثالثة من كان غلطهم زلة وهفوة فإذا تبين لهم عادوا الى الجادة ، فلم يظلم عليهم وقتهم ولم تتكدر صفوتهم .

ثم خص الطبقة الثانية بأربعة أبواب بين فيها غلط من غلط في : الفقر والغنى ـ التوسع والتقشف ـ الاكتساب وتركه ـ المجاهدات والسكون الى الراحات ـ ترك الطعام والعزلة والانفراد . وفي مثل واحد على هذه الأغلاط كفاية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فبعض المتنسكين تعلقوا بأخذ القوت من الكسب ، وظنوا أن الحال لا يصح إلا بالقوت الحلال ، وهذا لايصح إلا بالاكتساب . وقد غلطوا ، لأن الكسب رخصة لمن لم يطق التوكل . وقد أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بالتوكل على الله والثقة بوعده . فمن لم يطق سنّ له رسول الله الكسب بشروطه . وشروطه : أن لا يرى رزقه من كسبه ، ولا يكون في كسبه مغتنما ، ولا يشغله كسبه عن فروضه ، وأن يتعلم من العلم ما يوقيه الحرام . وهناك آخرون طعنوا على المكتسبين ، وقعدوا متشوفين الى من يفتقدهم ، ورأوا أن هذا هو الحال . وقد غلطوا ، لأن القعود عن الكسب ينبغي أن يكون من قوة اليقين والصبر ، فمن ضعف يقينه وغلب عليه طبعه يؤمر بالكسب ، والكسب مباح .

أما الطبقة الأولى ، طبقة الذين غلطوا في الأصول فوقعوا في الضلالة ، فقد استعرضهم في أربعة عشر باباً ، بين فيها غلط من غلط في : الحرية والعبودية ـ الإخلاص ـ النبوة والولاية ـ الإباحة والحظر ـ الحلول ـ فناء البشرية ـ الرؤية بالقلوب ـ الصفاء والطهارة ـ الأنوار ـ عين الجمع ـ الأنس والبسط والخشية ـ الفناء عن الأوصاف ـ فقد الحس ـ الروح .

وأضرب مثالاً على الغالطين في الأصول الذين غلطوا في عين الجمع . فهؤلاء لم يضيفوا الى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم ، فلم يضيفوا الحركة والسكون إلى أنفسهم ، وظنوا أن ذلك منهم احتراز ، حتى لا يكون مع الله شيء سوى الله . فأداهم ذلك الى الخروج من الملة وترك حدود الشريعة ، حين قالوا : إنهم مجبرون على حركاتهم ، فأسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود . وغلطهم في قلة معرفتهم بالأصول والفروع ، فلم يعرفوا الجمع والتفرقة ، فأضافوا الى الأصل ما هو مضاف الى الفرع ، وأضافوا الى الجميع ما هو مضاف الى التفرقة . « سئل سهل بن عبد الله : ما تقول في رجل يقول : أنا مثل الباب لا أتحرك إلا أن يحركوني ؟ فقال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما رجل صديق أو رجل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

زنديق » . والمعنى فيما قال سهل : أن الصديق يرى قوام الأشياء بالله ويرى كل شيء من الله ويرجع في كل شيء الى الله ، مع معرفة ما يحتاج إليه من الأصول والفروع والحق والباطل والأمر والنهي . . أما الزنديق فإنما يقول هذا القول حتى لا يزجره شيء من ركوب الباطل ، إنه أداه جهله الى الجسارة على إضافة أفعاله الى الله تعالى .

(٤)

بعد هذا العرض لكتاب اللمع ، ما أظنني متجنياً على الدكتورة إسعاد قنديل إذا قلت : إنها كانت متجنية على أبي نصر حين قالت : « . . إن كتاب اللمع كتاب قيم وافٍ متكامل الموضوع سليم المنهج . إلا أن شخصية المؤلف تبدو فيه باهتة ، فهو يعتد في معالجته للمواد التي يقدمها على أقوال من سبقه من الشيوخ والزعماء الأوائل للصوفية ، وقلما يدلي برأيه الخاص . . .

« ويلاحظ على الكتاب أيضاً أنه تعبير عن التصوف من وجهة نظر أهل السنة . فالسراج يحيل كل أصل من الأصول التي يتعرض لها في كتابه الى القرآن والسنة ويدعمه بالآيات القرآنية والأحاديث . ولذلك فإن تحليله لمادة الموضوع تفتقر الى العنصر الفكري والنظرة الفلسفية » .

فالدكتورة قنديل أصابت وأنصفت حين تكلمت على ميزات اللمع وحسناته ، وتجنت وجارت حين سعت للكشف عما ينقصه ويفتقر إليه . فالأعمال تقاس بمقاصدها وأهدافها ، والوسائل المرتبة لبلوغها ، ودرجة التوفيق في تحقيق كل ذلك . فالمطلوب مثلاً من « طواسين » الحلاج غيره من « لمع » السراج . هذا تعبير عن علم وذاك نطق عن حال وتجربة . ورأيي أن السراج قد بلغ بلمعه مراده ، وبلّغ به ما أراده ، وأن شخصيته كانت أبرز ما تكون حين اختفت أكثر ما يكون .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا أدري أكان من جملة مرادات أبي نصر ، أو كان واضحاً لديه ، أنه بلمعه **كان يضع علماً قائماً بذاته هو « علم » التصوف** ، كما كان الأمر فعلاً ؟ فأبو نصر قد وضع علم التصوف بالمعنى المقصود في قول القدماء : وضع الخليل علم العروض ، وابن المعتز علم البديع ، وفي قول بعض المحدثين : وضع ابن خلدون علم الاجتماع وفلسفة التاريخ . فقد أوضح الأسس المنطقية اللازمة لقيام علم التصوف : رتب علوم الشريعة في سلّم وضع في قمته علم التصوف ، وميز موضوعه من موضوعاتها ، وكشف عن أصوله وعن طريقة استنباط الحقائق فيه حين تلتقي بهذه الأصول التجربة الصوفية ، وحدّد حدوده وبيّن ما يمكن أن يدخل ضمنها وما لا يمكن ، ولأن التصوف علم وعمل بسط آداب الصوفية ، ولأنه تعبير شرح مصطلحه ولم يغفل أدبه . فإلى أن يكتشف كتاب سبق اللمع وأحاط بما أحاط به ، ما أظن من يزعم أن أبا نصر واضع علم التصوف مبالغاً أو « شاطحاً » .

أما خمول ذكر أبي نصر واللمع فلم أجد له تعليلاً إلا أن الرجل كان طيباً متواضعاً أميناً ورعاً مرَّ في هذه الدنيا بسلام . ويوحي كتابه بالفعل أن وراءه قلباً عميق الإيمان مستسلماً لمقادير الله ، لا تكاد توجد فيه عبارة قاسية أو شيء من عنف الهجوم حتى على المبتدعة والمارقين . قضى عمره ، على ما يظهر ، مترحلاً ، لم يستقر في مكان ، حتى في طوس إلا إذا كان في أخريات حياته . فكأنه جعل من نفسه طول حياته طالباً للعلم ومريداً ، ولم يجعل منها مركزاً لحلقة من المريدين تنشر ذكره ، إلا على قلة وعرضاً . ولم ينتسب الى فئة تتعصب له وتنصره . فلم يكن من الأشاعرة أو السالمية أو الحنابلة ، ولم يذكره الشوافع ولا الأحناف في طبقاتهم . ولم يكن شيخاً ولياً يقصده الناس للبركة .

وبكلمة : كان أبو نصر ذا عقل واعٍ ومنظّم وخلق مستقيم . درس علوم الدين فوعاها ، واتبع طريق التصوف فاستقام على الطريق ، فاستطاع أن يحسن الجمع والتصنيف ، وأن يكون له رأي فيما جمع وصنف . فقدم عملاً جيداً بروح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طيبة وبلا ضجة ، فانتفع الناس بعمله بصمت . ووضع علماً دون « تسجيل لحق الملكية » ، فأقام الآخرون أبنيتهم على الأسس التي أرساها دون أن يعترفوا بحقه ، أو يجدوا ضرورة للاعتراف مادام هو لا يطلبه ، فذُكروا ونُسي . وما أظنه لو بعث حياً إلا راضياً بخمول الذكر ، فشأنه شأن كل الزهاد الصادقين : يرون في خمول الذكر غنماً .

المراجع والتعليقات

(١) ر . أ . نيكلسون (١٨٦٨ ـ ١٩٤٥) ، مستشرق انكليزي عني خاصة بالتصوف الإسلامي . تخرج من كمبردج (١٨٩٣) . نشر « مختارات من ديوان شمس تبريز » لجلال الدين الرومي (١٨٩٨) ، عين في كمبردج أستاذاً للغة الفارسية (١٩٠١) ، وبعد خمس وعشرين سنة أصبح كبير أساتذة اللغة العربية إلى سنة (١٩٣٣) . اهتم بنشر مصادر التصوف الإسلامي العربية والفارسية وترجمتها الى الانكليزية . نشر وترجم : « تذكرة الأولياء » للعطار (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧) ـ « كشف المحجوب » للهجويري (١٩١١) ـ « اللمع » للسّراج (١٩١٤) . كما نشر وترجم : بعض قصائد لابن الفارض ـ « ترجمان الأشواق » لابن عربي (١٩١١) ـ « أسرار النفس » لإقبال (١٩٢٠) ـ « مثنوي » جلال الدين الرومي (١٩٢٥ ـ ١٩٣٠) . ذلك الى جانب المقالات والأبحاث الكثيرة التي كانت تنشرها كبريات الصحف العلمية ودوائر المعارف . وله من الكتب : « صوفية الإسلام » (١٩١٤) ، ترجمه الى العربية نور الدين شريبة ـ « دراسات في التصوف الإسلامي » (١٩٢١) ـ « فكرة الشخصية في التصوف الإسلامي » (١٩٢٣) ، ترجمه مع مقالات أخرى أبو العلا عفيفي ـ أنظر : مقدمة المترجم (عفيفي) لكتاب « في التصوف الإسلامي وتاريخه » ، ص ص (ك ـ ش) ـ مقدمة المترجم (شريبة) لكتاب « صوفية الإسلام » ، ص ص (و ـ ز) ـ « تراث الإسلام » ترجمة جرجيس فتح الله ، ص ٣٠١ ـ نجيب عقيقي ، المستشرقون ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ ـ ٥٢٧

(٢) اللمع لأبي نصر السراج ، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، مقدمة المحققين ، ص ١٣ ـ مصر ، ١٣٨٠ / ١٩٦٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٣) يقول نور الدين شريبة في مقدمته لكتاب « طبقات الصوفية » : تاريخ الصوفية ، وهو غير كتاب طبقات الصوفية . فقد ترجم فيه لأبي الحسن السيرواني (وفي الحاشية : نفحات الأنس ، ورقة ٧٧) ، كما ترجم فيه لأبي نصر السراج . . . وكثيراً ما ينقل عنه الذهبي في كتابه « تاريخ الإسلام » والخطيب البغدادي في كتابه « تاريخ بغداد » . ولم يذكر هذا الكتاب صاحب « كشف الظنون » . طبقات الصوفية ، المقدمة ، ص ٣٤ .

وأضيف : ولم يذكر هذا الكتاب بروكلمان وهو سابق على نشر الطبقات ، ولاسيزكين وهو لاحق به ، ويرجع في مواضع كثيرة من كتابه الى نشرة شريبة للطبقات .

وأخطأ محققا كتاب اللمع حين رجعا ترجمة السلمي هذه للطوسي الى « طبقات الصوفية » .

(٤) في الرسالة الصفحات : ٩١ ـ ١١٢ ـ ٢١٧ ـ ٢٢٥ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ويقابلها في اللمع على الترتيب الصفحات : ٧٠ ـ ٢٦٩ ـ ٤٥ ـ ٢٥٠ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨١ ـ ٢٨٠

(٥) كشف المحجوب للهجويري ، ترجمة الدكتوره إسعاد عبد الهادي قنديل ، مصر ١٣٩٤ / ١٩٧٤ ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ ـ ، ج ٢ ، ص ٥٦٧

(٦) يتردد ذكر الشونيزية في كتب التصوف . و « الشونيزية مقبرة ببغداد بالجانب الغربي ، دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين منهم : الجنيد وجعفر الخلدي ورويم وسمنون المحب ، وهناك خانقاه للصوفية » . معجم البلدان ، دار صادر ، ج ٣ ص ٣٧٤

(٧) أسرار التوحيد ، محمد بن المنور ، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل ، ص ٤٣

(٨) المصدر نفسه ، ص ٧٨

(٩) جاء في المقدمة التي كتبها محققا اللمع نقلاً عن نيكلسون : « . . فإن مؤلفي التصوف القديم مروا عليه (أبي نصر) في سكوت ، وأول ما ورد ذكره ، حسب علمي ، في ملحق لتذكرة الأولياء » . . ـ اللمع ، مقدمة المحققين ، ص ١٣

(١٠) كشف المحجوب ، مقدمة المترجمة ، ص ١٦٥

(١١) تاريخ الإسلام للذهبي ، مصورة مجمع اللغة العربية بدمشق رقم ١١٦ (عن مخطوطة المتحف البريطاني) ، اللوح ١٥٦

(١٢) العبر للذهبي ، ج ٣ ، ص ٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١٣) الوافي بالوفيات للصفدي . مصورة مجمع اللغة العربية عن مخطوطة أحمد الثالث ، المجلدة ١٧ ، الورقة ٧١ (دلتني على هذا المرجع الاستاذة سكينة الشهابي)

(١٤) مرآة الجنان لليافعي ، ج ٢ ، ص ٤٠٨

(١٥) اللمع ، مقدمة المحققين ، ص ١٢

(١٦) كشف الظنون ، ص ١٥٦٢

(١٧) هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٤٤٧ . وقدمت ذكره على شذرات الذهب كي أختم التراجم بالترجمة الجامعة .

(١٨) شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٩١

(١٩) اللمع ، مقدمة المحققين ، ص ١٤

(٢٠) اللمع ، مقدمة المحققين ، ص ١٣

(٢١) المرجع نفسه ، ص ٦ و ٧

(٢٢) طبقات الصوفية ، مقدمة المحقق ، ص ١٥

(٢٣) طبقات الصوفية ، ص ١٥٥

بدا لي من قراءة الطبقات كأن السلمي رتب شيوخ الصوفية في مراتب خص كل مرتبة منها بلقب ، ويضيف الى اللقب ما يخصصه نوعاً من التخصيص : من أئمة ، من أجلة ، من جلة ، من كبار الخ . .

أما الصوفيةالسبعة الذين أعطاهم لقب إمام فهم :

١ ـ سري السقطي « وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته » ، ص ٤٨

٢ ـ أبو حفص النيسابوري « وكان أحد الأئمة والسادة » ، ص ١١٦

٣ ـ الجنيد

٤ ـ سهل التستري « أحد أئمة القوم وعلمائهم » ، ص ٢٠٦

٥ ـ أبو سعيد الخراز « وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم » ، ص ٢٢٨

٦ ـ أبو محمد المرتعش « حتى صار أحد مشايخ العراق وأئمتهم » ، ص ٣٤٩

٧ ـ أبو بكر الكتاني « وكان أحد الأئمة » ، ص ٣٧٣

(٢٤) رسالة القشيري ، طبعة محمد علي صبيح ، ص ٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢٥) كشف المحجوب ، ج ٢ ، ص ٤٢٠

(٢٦) ارجع الى تاريخ التراث العربي لفؤاد سيزكين ، الفصل الثاني : كتب التصوف في العصر العباسي ، ج ٢ ، ص ص ٤٣١ ـ ٥٠٦

(٢٧) طبقات الصوفية ، ص ٣٤٩ ـ أبو نعيم الأصفهاني ، حلية الأولياء ، ج ١٠ ، ص ٣٥٥ ـ تاريخ بغداد ، ج ٧ ، ص ٢٢١ و ٢٢٢ ـ الرسالة القشيرية ، ص ٤٣ ـ شذرات الذهب ، ج ٢ ، ص ٣١٧

(٢٨) الطبقات ، ص ٤٣٤ ـ الحلية ، ج ١٠ ، ص ٣٨١ ـ تاريخ بغداد ، ج ٧ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٣١ ـ الرسالة ، ص ٤٧ ـ الشذرات ، ج ٢ ، ص ٢٧٨

(٢٩) الطبقات ، ص ٤٤٨ ـ تاريخ بغداد ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ و ٢٦٧ ـ الرسالة ، ص ٤٨

(٣٠) ابن ماكولا (ـ ٤٨٥) ، الإكمال ، ج ٤ ، ص ٥٦١ (هذه هي الترجمة الوحيدة التي عثرت عليها ، ودلتني عليها الأستاذة سكينة الشهابي)

(٣١) الذهبي ، العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ـ الشذرات ، ج ٣ ، ص ٢١٠

(٣٢) العبر ، ج ٣ ، ص ١١٨ ـ الشذرات ، ج ٣ ، ص ٢٠١

(٣٣) اللمع ، ص ١٨

(٣٤) اللمع ، ص ٤١٢

(٣٥) الرسالة ، ص ٦٨ و ٦٩

(٣٦) الشيوخ الذين ذكر أبو نصر في اللمع أنه سمع منهم : محمد بن أحمد الفراء ـ أبو بكر أحمد بن علي الوجيهي ـ أبو بكر الطوسي ـ أبو الحسن بن سالم ـ أبو عمرو عبد الواحد بن علوان ـ أبو عمرو اسماعيل بن نجيد ـ أبو بكر الدقي ـ أبو الحسن علي بن ابراهيم الحصري ـ عيسى القصار الدينوري ـ أحمد بن محمد بن سنيد قاضي الدينور ـ أبو الحسن المكي ـ أبو محمد جعفر الخلدي ـ أحمد الطرسوسي ـ أحمد بن دلويه ـ أبو عبد الله الروذباري ـ محمد بن معبد البانياسي ـ أحمد بن جعفر الطوسي ـ أبو حفص عمر الخياط ـ أبو علي بن أبي خالد الصوري ـ أبو الطيب الشيرازي ـ أحمد بن محمد الطلي ـ أبو الحسين السيرواني ـ أبو الحسن علي بن محمد الصيرفي ـ يحيى بن الرضا العلوي ـ طلحة العصائدي البصري ـ أحمد بن إبراهيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المؤدب البيروتي ـ أبو حفص عمر الشمشاطي ـ أبو عمرو الزنجاني ـ أبو سعيد الدينوري ـ أبو محمد بن أحمد بن مرزوق المصري .

(٣٧) اللمع ، ص ٢١

(٣٨) الطبقات ، ص ٤٣٤

(٣٩) اللمع ، ص ١٩

(٤٠) المرجع نفسه ، ص ١٩

(٤١) المرجع نفسه ، ص ٢٠

(٤٢) تاريخ التراث العربي ، ج ٢ ، ص ٤٨٨

(٤٣) المنقذ من الضلال ، الطبعة الثانية ، دمشق ، ص ١٢٢

(٤٤) مقدمة ابن خلدون ، المكتبة التجارية ، ص ٤٦٩

(٤٥) اعتمدت في تحديد الصفحات التي ورد فيها ذكر أبي نصر على فهرس الأعلام في الطبقات ، ص ٥٣٧

(٤٦) أسماء الرواة الوسطاء بين القشيري والسراج مرتبة حسب كثرة ورودها : أبو حاتم السجستاني ـ محمد بن أحمد بن محمد التميمي الصوفي ـ محمد بن الحسين ـ أبو عبد الرحمن السلمي ـ عبد الله بن يوسف الأصبهاني ـ محمد بن محمد بن غالب

الصفحات من الرسالة التي ورد فيها نقل عن أبي نصر : ٦ ـ ٧ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٢٠ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٤٠ ـ ٧٩ ـ ٩١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ ـ ١١٨ ـ ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣١ ـ ١٣٢ ـ ١٤٢ ـ ١٥٨ ـ ١٦٣ ـ ١٧٥ ـ ١٨٥ ـ ١٩٠ ـ ٢١٦ ـ ٢١٧ ـ ٢١٩ ـ ٢٢٠ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٧ ـ ٢٢٩ ـ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ـ ٢٤٥ ـ ٢٥٧ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٣ ـ ٢٨١ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ـ ٢٨٥

(٤٧) كشف المحجوب ص ص ١٦٥ ـ ١٧١

(٤٨) الصفحات من كشف المحجوب التي وردت فيها الحواشي المذكورة : ٣٢٤ ـ ٣٢٠ ـ ٤٠٧ ـ ٤٦٨ ـ ٤٦٩ ـ ٤٧٠ ـ ٤٧٦ ـ ٤٨٢ ـ ٤٩٥ ـ ٥٢٢ ـ ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ـ ٥٣٤ ـ ٥٤١ ـ ٥٤٤ ـ ٥٤٥ ـ ٥٥٨ ـ ٥٦٧ ـ ٥٨٦ ـ ٥٨٧ ـ ٦٤٣ ـ ٦٤٤ ـ ٦٤٨ ـ ٦٤٩ ـ ٦٥٠ ـ ٦٥٢ ـ ٦٥٣ ـ ٦٥٦ ـ

(٤٩) اللمع ، ص ص ٢١ ـ ٤٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٥٠) حديث جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان : في الصحيحين وأبي داود وابن ماجه عن أبي هريرة . وفي مسند الإمام أحمد والبزار عن ابن عباس ، ومسلم وأصحاب السنن عن عمر ، والبزار عن أنس

تخريج الإحاديث أنقله عن اللمع ، وهو من عمل محمد الحافظ التيجاني ، كما يقول محققا اللمع في المقدمة .

(٥١) لقمان ، ٣٠

(٥٢) النساء ، ٨٣

(٥٣) المائدة ، ١١٣

(٥٤) اللمع ، ص ص ٤٩ ـ ٦٤

(٥٥) طه ، ١١٠

(٥٦) اللمع ، ص ص ٦٥ ـ ١٠٤

(٥٧) الزمر ، ١٠

(٥٨) ق ، ٣٧

(٥٩) « اعبد الله كأنك تراه ، وعد نفسك في الموتى ، وإياك ودعوات المظلوم » ، الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسّن السيوطي سنده ، وضعفه المنذري ، وقال الحافظ الهيثمي : الرجل الذي من النخع لا أعرفه . وبلفظ آخر ، رواه الطبراني والبيهقي عن معاذ ، قال الحافظ العراقي : رجاله ثقات وفيه انقطاع . وبلفظ آخر ، في الحلية عن زيد بن أرقم .

(٦٠) الحديد ، ٣

(٦١) اللمع ، ص ص ١٠٥ ـ ١٩٣

(٦٢) آل عمرن ، ٧

(٦٣) أبو نعيم في الحلية من حديث أنس ، وضعفه

(٦٤) قول ابن مسعود : من أراد العلم فليثور القرآن . الطبراني بأسانيد ورجال ، أحدها رجال الصحيح ، قاله الحافظ الهيثمي .

(٦٥) البقرة ، ١ ، ٢ ، ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٦٦) النحل ، ٨٩

(٦٧) الأنعام ، ٣٨

(٦٨) الإسراء ، ٩

(٦٩) ص ، ٢٩

(٧٠) ق ، ٣٧

(٧١) الشعراء ، ٨٨ ، ٨٩

(٧٢) الصافات ، ٨٣ ، ٨٤

(٧٣) يونس ، ٢٥

(٧٤) الحج ، ٧٥

(٧٥) فاطر ، ٣٢

(٧٦) المائدة ، ٤٨

(٧٧) الجاثية ، ٢٣

(٧٨) النحل ، ٩٧

(٧٩) فاطر ، ٢٨

(٨٠) آل عمران ، ٧

(٨١) الشعراء ، ٩٣ ، ٩٤

(٨٢) الإسراء ، ٨٢

(٨٣) لقمان ، ٢٨

(٨٤) المائدة ، ٣٥

(٨٥) المؤمنون ، ٥٥ ، ٥٦

(٨٦) المعارج ، ٢٧

(٨٧) طه ، ٧

(٨٨) المؤمنون ، ٥٨

(٨٩) المؤمنون ، ٥٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٩٠) المؤمنون ، ٩٠

(٩١) الواقعة ، ١٠ ، ١١

(٩٢) المطففون ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨

(٩٣) اللمع ، ص ص ١٩٤ ـ ٢٨٢

(٩٤) الصوم جنة ، النسائي عن معاذ وأبي عبيدة والبيهقي عن جابر ، الصيام جنة ، أحمد والبخاري والنسائي عن أبي هريرة

(٩٥) اللمع ، ص ص ٣٠٥ ـ ٣٣٧

(٩٦) اللمع ، ص ص ٢٨٣ ـ ٣٠٤ ، ص ص ٣٣٨ ـ ٤٠٨

(٩٧) اللمع ، ص ص ٤٠٩ ـ ٤٥٢

(٩٨) اللمع ، ص ص ٤٥٣ ـ ٥١٥

(٩٩) لا يتفق السلمي والقشيري مع أبي نصر في رأيه بابن يزدانيار . قال السلمي عنه : « هو أبو بكر الحسين بن علي بن يزدانيار . من أهل أرمية . له طريقة في التصوف يختص بها . وكان ينكر على بعض مشايخ العراق أقوالهم . وكان عالماً بعلوم الظاهر ، وعلوم المعاملات والمعارف » ـ الطبقات ، ص ٤٠٦ وقريباً من هذا القول يذكر القشيري في رسالته ، ص ٤٧

(١٠٠) اللمع ، ص ص ٥١٦ ـ ٥٥٥

(١٠١) كشف المحجوب ، المقدمة ، ص ١٥٤

تنبيه : ورد في مقال « أبو القاسم القشيري » المنشور في الجزء السابق من المجلة ، أن تاريخ نشر كتاب « المعراج » سنة ١٩٤٦ وهذا خطأ والصحيح سنة ١٩٦٤

عبد الكريم زهور عدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net